

الفلسفة الإلهية عند توما الأكويني من خلال كتابه مجموعة الردود على الخوارج فلاسفة المسلمين

دراسة تحليلية نقدية

إعداد

د/ أحمد محمد علي حسين

المدرس بقسم العقيدة والفلسفة –كلية أصول الدين والدعوة
جامعة الأزهر – فرع المنصورة

الفلسفة الإلهية عند توما الإكويني من خلال كتابه
مجموعة الردود على الخوارج فلاسفة المسلمين

أحمد محمد علي حسين
قسم العقيدة والفلسفة كلية أصول الدين والدعوة جامعة الأزهر – فرع المنصورة
البريد الإلكتروني: Ahmedhesseine910.el@azhar.edueg

الملخص

بدأ الباحث بالحديث عن حياة توما الإكويني ثم تناول الباحث الفلسفة الإلهية عند توما محاولًا الوقوف على ما توصل إليه توما الإكويني من أدلة في هذا الجانب، كما تحدث الباحث عن ثقافة توما والتي كانت تجمع بين الاتجاه الديني، والاتجاه الفلسفي حيث دعا توما إلى التفكير العقلي في موضوعات دينية مما يعتبر أن هذه الدعوة صورة من صور التوفيق بين الدين والفلسفة، أو بين النقل والعقل.

الكلمات المفتاحية: **الفلسفة – الإلهية – توما – تحليلية – نقدية.**

The Divine Philosophy for Thomas Aquinas through his book The Collection of Responses to the dissidents (Kharijites), Muslim Philosophers

Ahmed Muhammad Ali Hussain
Department of Belief and Philosophy, Faculty of Fundamentals of Religion and Call (Da'wah), Al-Azhar University - Mansoura Branch
Email: Ahmedhesseine910.el@azhar.edueg.

Abstract:

The researcher began by talking about the life of Thomas Aquinas. Then he dealt with the Divine Philosophy of Thomas trying to find out what Thomas Aquinas had reached in terms of evidence in this aspect. The researcher also talked about the culture of Thomas which was a combination of the religious trend and the philosophical trend, as Thomas called for mental thinking in Religious issues which is considered to be a form of reconciliation between religion and philosophy or between transmission and reason.

key words: Philosophy - The Divine - Thomas - Analytical - Critical.

المقدمة



الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله النبي الأمي الذي أرغب في الصلاة والسلام عليه وعلى آله الأبرار وصحابته الأخيار والتابعين لهم بإحسان.   أما بعد

فإن فلسفة العصور الوسطى جزء أصيل من التاريخ الفلسفي العام وقد برز فيه كثير من الفلاسفة والمفكرين من أبرزهم الفيلسوف توما الإكويني الذي يُعد من القديسين والمفكرين الذين لهم باع كبير في قضايا الفكر، كما يُعد من أنصار المدرسة الأرسطية، بل يعتبر الممثل الأساسي للأفكار والآراء الأرسطية وهذا مما يجعل التعليق على تآليفه يتطلب استجماع الفكر والوقوف على دقائق آرائه العويصة ولا سيما في ما يتعلق بالفلسفة الإلهية عنده، لذا نجده يقول في كتابه مجموعة الردود على الخوارج محل البحث في نهاية الفصل الثاني.

فكان لا مندوحة لنا من العود إلى العقل الطبيعي الذي يضطر الجميع إلى التسليم به، إلا أن العقل يقصر نقصًا عن الأمور الإلهية بيد أننا إذا تفحصنا حقيقة من هذه الحقائق فإننا نبين معًا أي الأضاليل يندفع بها. وكيف أن الحقيقة الثابتة ببرهان العقل تجئ موافقة لعقيدة الدين، من أجل هذا جاءت آرائه فيما يتعلق بالفلسفة الإلهية متمشية مع المنهج الأرسطي؛ وذلك لأن في عصر ما قبل النهضة وهي فترة القديس توما الإكويني بدا

الفلاسفة والمفكرون في هذه الفترة الميل نحو المنهج العقلي وإتباع المنهج الأرسطي مما جعلني أقوم بتوضيحات وتعليقات على نصوص توما بغرض تسهيل فهم المقصود منها، فهي ما بين توضيحات منطقية وأخرى فلسفية أو كلامية.

وسيتضح ذلك من خلال مناقشة القضايا التي أثارها توما في هذا البحث، علمًا بأن أي مفكر بطبيعته أُحادي النظرة، صاحب رأي يضحي بجانب من أجل إبراز جانب آخر، فيأتي بعده من ينقضه ويبرز ما أغفله ويظهر الجانب الآخر حتى تكتمل الصورة وتظهر الحقيقة، وهذا هو الهدف من النقض فليس الهدف من النقض بيان العيوب وهدم الرأي بل الهدف كما ذكرت هو الوصول إلى الحقيقة وكذا التطوير والاستمرار والتدرج في الفكر؛ لأن الاستمرار والتدرج في الفكر وعمل الأجيال يؤدي إلى مشروع فكري جماعي من خلاله تتحقق النهضة الفكرية، كما أنه يكون متمشيًا مع الناموس الفطري العام وهو ناموس التدرج الذي يعمل عمله في الكائنات كلها مادية ومعنوية باضطراد فلا يحتمل أن يشذ عنه شاذ في أي ناحية من نواحي الحياة الإنسانية، ومتمشيًا أيضًا مع قاعدة التأثير والتأثر بين السابق واللاحق، وهذه هي طبيعة الحس الفلسفي والتفكير بصفة عامة. لذلك فقد تناولت في هذه الدراسة والتي جاءت بعنوان: (الفلسفة الإلهية عند توما الإكويني من خلال كتابه مجموعة الردود على الخوارج فلاسفة المسلمين دراسة تحليلية نقدية) وتبرز أهمية الموضوع في الآتي:

١. محاولة الإطلالة على جانب الإلهيات في فلسفة توما الإكويني من خلال كتابه مجموعة الردود محل البحث.
٢. الوقوف على ما توصل إليه توما الإكويني من أدلة في هذا الجانب.

٣. كان لتوما الإكويني منهج مميز في تناول القضايا الفلسفية الإلهية فأردت أن ألقي الضوء عليها محللًا وناقضًا بهدف الوصول إلى الحقيقة: أما عن المنهج الذي استخدمته في هذه الدراسة فهو المنهج التحليلي والمنهج النقدي كي أكون ملتزمًا بما جاء في عنوان البحث، فالمنهج التحليلي قد استخدمته في عرض ما قاله تومًا الإكويني وتحليله واستخلاص ما يمكن أن نستخلصه منه، أما بالنسبة للمنهج النقدي فقد استخدمته في بيان بعض الملاحظات التي يمكن ملاحظتها حول ما قاله توما والرد عليه مع بيان الأوجه التي تقوم على الموضوعية ملتزمًا بوحدة الموضوع. متجنبًا الخوض في ما لا صلة له بقضايا البحث.

علمًا بأن الفلسفة الإلهية عند توما الإكويني والتي هي محل دراستنا تبدء من الفصل الثالث من كتابه: (مجموعة الردود على الخوارج فلاسفة المسلمين محل البحث.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يشتمل على مقدمة وتمهيد وثلاثة عشر فصلاً وخاتمة.

أما **المقدمة**: فقد بينت فيها أهمية الموضوع ومنهج الباحث وخطبة البحث.

وأما **التمهيد**: فقد تحدثت فيه عن حياة توما الإكويني.

الفصل الأول: في أن الأشياء التي نعتقدها عن الله إنما الحق فيها على نوعين.

الفصل الثاني: في أن الأمور الإلهية المعروفة بمعرفة طبيعية يناسب أن تلقى إلى الناس.

الفصل الثالث: في أن الأشياء التي لا يمكن للعقل أن يتطلع طلعها يناسب أن تعرض على الناس ليصدقوها تصديق الاعتقاد والإيمان.

الفصل الرابع: في إن إذعان العقل للأشياء التي هي من الإيمان وإن كانت هذه تفوق العقل ليس ضربًا من الطيش والخفة.

الفصل الخامس: في أن حقيقة الإيمان المسيحي لا تضادها حقيقة العقل.

الفصل السادس: في أنه كيف تكون حال العقل الإنساني بالنظر إلى حقيقة الإيمان الأولى.

الفصل السابع: في ترتيب هذا المؤلف والأسلوب الذي نجري عليه في وضعه.

الفصل الثامن: في رأي القائلين بأن كون الله موجودًا لا يمكن إقامة البرهان عليه؛ لأنه بين بذاته.

الفصل التاسع: في إبطال الرأي المذكور وحل الأسباب المتقدمة.

الفصل العاشر: في القائلين بأن كون الله موجودًا لا يمكن إقامة البرهان عليه، وإنما يقع به الإذعان اليقيني بالإيمان فقط.

الفصل الحادي عشر: في البينات التي يؤتي بها لإثبات أن الله موجود.

الفصل الثاني عشر: في أنه لا بد لمعرفة الله من اتخاذ طريقة السلب.

الفصل الثالث عشر: في أن الله سرمدي.

أما **الخاتمة**: فقد ذكرت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال البحث والدراسة.

ثبت المراجع: ذكرت فيه أهم مصادر البحث ومراجعه بعد كتاب الله تعالى القرآن الكريم ورتبتها ترتيبًا هجائيا مع ذكر أصحابها وبيان طبعتها وتاريخها إن وجد.

فهرس الموضوعات: وهو يحوي كل ما ورد في البحث.

التمهيد

ويشتمل على نبذة عن حياة توما الإكويني ونشأته

توما الإكويني: هو ابن كونت دي إكوينوا - بإيطاليا الجنوبية، يعني من أصل إيطالي، ولد بين نهاية عام ١٢٢٤م، وبداية عام ١٢٢٥م في قصر روكازيكا على مقربة من إكونيو - لقب بالمعلم الجامع للكنيسة وكذلك بالمعلم الملائكي، فهو إذن فيلسوف ولاهوتي، وفي رأي مؤرخي الفكر السياسي يعتبر توما الإكويني أول فيلسوف العصر الوسيط ينظر إلى القيمة الإيجابية للدولة بدعوى أنها تتأسس على العقل وليس على الغريزة ومهمتها معاونة الإنسان على ممارسة العقلانية، أما الناحية الخلقية والدينية للإنسان فمهمة الكنيسة، ومن هنا تكون الدولة خاضعة للكنيسة.

التحق في الرابعة عشر من عمره بكلية الفنون جامعة نابولي ثم دخل رهبنة الدومنيكيين، تتلمذ على يد ألبرت الأكبر ثلاث سنين بباريس ثم رافقه إلى كولينا حيث كانت الرهبنة، أنشأ فيها معهدًا عاليًا، ثم عاد إلى باريس كي يحضر لدرجة الأستاذية في اللاهوت.. فصار أستاذًا وهو في الحادية والثلاثين من عمره، له مصنفات عدة منها:

(١) شرح الأسماء الإلهية لديونيسوس.

(٢) المجموعة الفلسفية أو الرد على الأمم أي الخارجين عن المسيحية.

(٣) الشروح على أرسطو.

(٤) رسالة في وحدة العقل ردًا على الرشيديين أنصار الفيلسوف ابن رشد.

(٥) رسالة في أزلية العالم ردًا على الأوغسطينيون أنصار أوغسطين.

(٦) المجموعة اللاهوتية.

(٧) شروح على معظم الكتب المقدسة.

(٨) رسائل عديدة أهما مجموعة منطقية وموجز للاهوت.

وأخيرًا: اختار نابولي مقرًا له واستأنف التعليم حتى كان السادس من ديسمبر ١٢٧٣م فإذا تغيير بالغ يعرض له أثناء القداس فينقطع عن التعليم وعن الكتابة والإملاء، ويتفرغ للعبادة... ثم دعاه البابا إلى مجمع كنسي يعقد بليون فلبى الدعوة ولكنه مرض في الطريق بين نابولي وروما فلجأ إلى دير بندكتي وتوفى هناك سنة ١٢٧٣م[1].

---

(١) يراجع في ذلك: تاريخ الفلسفة الأوربية، يوسف كرم، ص ١٤٠ : ١٤٣ باختصار، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة سنة ٢٠١٤م – القاهرة، معجم الفلاسفة لجورج طرابيشي، ج ١ ص ٢١٧ حرف التاء، ط: الأولى ١٩٨٧م، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، المعجم الفلسفي، مراد وهبة، ص ٢٥٣: ٢٥٥، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ٢٠١٦م.

الفصل الأول

في أن الأشياء التي نعتقدها عن اللّه
إنما الحق فيها على نوعين

تحدث توما فيما يجب معرفته من الحقائق الإلهية في كتابه المسمى "مجموعة الردود على الخوارج – ويقصد بهم فلاسفة المسلمين، ولذلك يقول فيلسوف الكنيسة الكاثوليكية رنوس داكين (أردنا أن نجعل كتاب مجموعة الردود... في جامعة باريس موطن دراسة أغلاط وأخطاء الجهال المروية عن فلاسفة العرب والتي سببت غزوًا وإغواءً للعقول)(١)، ولنرجع إلى حديث توما عن ما يجب على الإنسان المؤمن أن يعتقده في الله فنراه يقسم هذا الوجوب إلى قسمين:

الأول: أمور واجبة لله – ﷻ – ويجب على كل مؤمن أن يصدق بهذه الأمور إلا أن العقل البشري لا يستطيع إدراك هذه الأمور الواجبة لله ولا يستطيع معرفتها لأنها فوق طاقة البشر وفوق كل إدراك عقلي بشري، ككون الله "ثلاثيًا وواحدًا"(٢). فمثل هذه الأمور فوق طاقة العقل الطبيعي بل فوق طاقة عقول الخاصة من الناس.

الثاني: أمور واجبه لله – ﷻ – لكنها تكون فوق طاقة العقل الطبيعي لكنها ليست فوق طاقة العقل الراقي أو عقل الخاصة أو ذلك العقل النظري

---

(١) تومس داكين وعلم اللاهوت، ص ٣٥، ترجمة جوزيف رسام.

(٢) مجموعة الردود على الخوارج فلاسفة المسلمين، ص ٨، المعلم الملائكي اللاهوتي القديس، توما الإكويني، ترجمه عن اللاتينية وعلق حواشيه المطران نعمة الله أبي كرم، مستشار مجمع الكنيسة الشرقية، دار ومكتبة بيبليون لبنان سنة ٢٠٠٥م.

الذي يستطيع إدراك هذه الأمور بالقياس البرهاني مسترشدًا في هذا بنور العقل.

وقد ضرب توما مثالاً على هذه المدركات التي يدركها الخاصة دون العامة بوجود الله ووحدانيته، فيقول: (وبعضه ما يستطيع العقل الطبيعي نفسه التوصل إلى إداركه ككون الله موجودًا وأنه واحد) [١].

حكم الإيمان بالأمور التي فوق طاقة البشر جميعًا:

وأشير هنا إلى تنبيه متعلق بهذين الأمرين أورده المحقق[٢] وهو أن الحقين اللذين نسبا إلى الله – ﷻ – وهما الحق الطبيعي الذي هو متعلق بالنظر والاجتهاد الإنساني ثم الحق الموحي به وهو الذي لا يمكن لمترقي أي لا يمكن لباحث أن يرقى في بحثه ونظره أن يبلغ إليه وهو الذي سمي حق الإيمان أو الحق الإيماني لأنه يفوق عقل الإنسان إنما هما اثنان لا من جهة الله باعتبار أنهما في الله وإنما نعتبرهما حقان واثنين من جهة الإنسان، ومعرفته للحق الإيماني وإنما ثبتها توما لهذا لأن الله عنده بسيط[٣] وهذا مصطلح يوناني بل هو الحق البالغ نهاية البساطة.

والأمر الذي يحذر منه توما والمحقق أن قولهما: (أن الحق المتعلق بالإلهيات والذي يلقيه الله إلينا حقًا لا يراد به أن الله يدرك هذا الحق بمعرفتين وكذلك يلقيه إلينا وإنما المراد به أن الذي يوحيه الله إلينا في الأمور

---

(١) مجموعة الردود، ص ٨، ٩.

(٢) ينظر: هامش رقم ١ ص ٢٩ من كتاب مجموعة الردود.

(٣) البسيط: هو ما لا جزء له أصلا أو ما ليس له أجزاء متخالفة الماهية سواء لم يكن له جزء أصلاً أم كان له أجزاء متفقة الحقيقة. ينظر: المعجم الفلسفي، د/ عبدالمنعم الحنفي ص ٤٥، الدار الشرقية، ط: الأولى ١٩٩٠م.

التي يعرفها هو بفعل معرفة واحدة ونتناوله نحن بمعرفتين وندرك فيه حقين)[1].

الأمر الذي يحذر منه توما ومحقق الكتاب هو اعتقاد تعدد جهات باعتبار تعدد الصفات؛ لأن هذا يتناقض مع عقيدة توما بأن الله بسيط.

والحق أن توما مخطئ في هذا التحليل وبالتالي هذا الاعتقاد؛ لأن تعدد الجهات وإن كان مشاهدا في الإنسان إلا أنه مستحيل في حق الله، يؤكد هذا أن الله هو الذي خلق الإنسان، وأبدع الكون ورزق الإنسان والحيوان والحشرات، إنه سبحانه هو المتصرف في جميع الكون بجميع عناصره ومكوناته ولا يقال إن في هذا تعدد الجهات بالنسبة لله تعالى لأن الله ليس كمثله شيء.

وفي هذا السياق يقول الأشعري في كتابه مقالات الإسلاميين: (أن الله واحد ليس كمثله شيء وهو السميع البصير وليس بجسم ولا شبح، ولا جثة، ولا صورة ولا لحم، ولا دم، ولا شخص، ولا جوهر ولا عرض، ولا بذي لون ولا طعم ولا رائحة ولا مجسة، ولا بذي حرارة ولا رطوبة ولا يبوسة، ولا طول ولا عرض ولا عمق، ولا اجتماع ولا افتراق، ولا يتحرك ولا يسكن ولا ينبعض، وليس بذي أبعاض وأجزاء وجوارح وأعضاء، وليس بذي جهات، ولا بذي يمين وشمال وأمام وخلف وفوق وتحت، ولا يحيط به مكان ولا يجري عليه زمان ولا تجوز عليه المماسة ولا العزلة ولا الحلول في الأمكان، ولا يوصف بشيء من صفات الخلق الدالة على حدوثهم، ولا يوصف بأنه متناه ولا يوصف بمساحة ولا ذهاب في الجهات وليس بمحدود، ولا والد ولا مولود ولا

---

(١) هامش ١ مجموعة الردود، ص ٢٩، ٣٠.

تحيط به الأقدار ولا تحجبه الأستار، ولا تدركه الحواس ولا يقاس بالناس ولا يشبه الخلق بوجه من الوجوه)[١].

فهو - ﷻ -: (لا يشبه شيء من المعدومات ولا من الموجودات الحادثة سواءً كانت موجودة خارجًا أم ذهنًا.

ومعنى ذلك أنه - ﷻ - ليس بجوهر ولا جسم، ولا عرض ولا متحرك ولا ساكن، ولا يوصف تعالى بالكبر ولا بالصغر، ولا بالفوقية ولا بالتحتية ولا بالحلول في الأمكنة، ولا بالاتحاد ولا بالانفصال ولا باليمين ولا بالشمال، ولا بالخلف ولا بالأمام ولا بغير ذلك من صفات الحوادث، إذ لو كان مماثلاً لها لوجب له تعالى ما وجب لها من الحدوث والافتقار وذلك محال...، وبما أنه تعالى منزه عن مماثلة المخلوقات فهو تعالى ليس مركبًا؛ لأن المركب محتاج أولاً إلى مركب يركب أجزائه، وثانيًا محتاج إلى أجزائه التي يتركب منها والاحتياج ينافي الوجود الذاتي، وإذا انتفى عنه التركيب فهو ليس بجسم)[٢]. وعدم إيمان توما بهذه الحقيقة يلزمه القول بمماثلة إلهه بالبشر والذي يكون هكذا لا يصح أن يكون إلها.

عرفنا سابقًا أن المعتقدات التي يجب على المؤمن أن يصدق بوجودها لله نوعان: نوع لا يدركه عقل ولا يستطيع معرفته، أي عقل بشري مثقف أو

---

(١) مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تأليف: شيخ أهل السنة والجماعة الإمام أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، ج ١ ص ٢٣٥، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، طبعة خاصة بورثة المحقق.

(٢) دراسات في علم الكلام والعقيدة، د/ جميل محمد أبو العلا، ص ٤٩: ٥٣ باختصار، مطبعة قاصد خير، ط: الأولى ١٩٨٤م.

غير مثقف، طبيعي أو أعلى من الطبيعي الذي هو عقل الخاصة من الناس وهذا كالاعتقاد بأن الله ثلاثيًا وواحدًا، أما النوع الثاني من هذه المعتقدات فهذا يدركه الخاصة دون العامة أو ما سماه بالعقل الطبيعي وحكم عليه بأنه غير قادر على إدراك هذا النوع من المعتقدات وذلك كالإيمان بوجود الله وأنه واحد، فالخاصة من الناس هم الفلاسفة قد أثبتوا هذا بالقياس البرهاني أما العقل الطبيعي العامة من الناس فليس لهم معرفة بالقياس البرهاني[1]، لذلك لا يستطيعون إدراك وجود الله ووحدانيته بعقولهم هذه.

أما الحكم على النوع الأول: بأن البشر جميعًا غير قادرين على إدراكه فذلك راجع عند توما الأكويني إلى أن العلم الذي يحصله العقل عن شيء من الأشياء لا يسمى علمًا ولا يعتبر علمًا إلا إذا تعقل جوهر هذا الشيء وعرف حقيقته فلو أردنا مثلاً معرفة جوهر الحجر أو المثلث[2] واستطعنا أن نصل إلى معرفة كل شيء عن الحجر والمثلث بحيث لا يبقى شيء عن الحجر أو المثلث إلا وقد عرفناه كانت المعلومات عن الحجر والمثلث ليست فوق العقل، أي أن إدراك الأشياء بمعرفة جوهرها وحقيقتها لا يتم إلا إذا كانت هذه الأشياء في متناول العقل البشري وليست فوق طاقته.

ولما كان هذا الإدراك – إدراك جوهر الأشياء ومعرفة حقيقتها – غير ممكن تحققه مع ذات الله من أنه ثلاثيًا وواحد؛ لأن تعقل الإنسان للأشياء يمر في المرحلة الأولى بالإدراك الحسي للأشياء ولما كان الله غير مدرك بالحس كان غير ممكن إدراك جوهره وحقيقته وبالتالي كان هذا فوق طاقة

---

(١) مجموعة الردود، ص ٨، ٩.

(٢) السابق، ص ٩.

البشر جميعًا أي عامتهم وخاصتهم لذلك حكم توما منذ أول الأمر بأن هذا النوع من الإدراك والمعرفة فوق طاقة البشر جميعًا.

ويقول أيضًا: (لما كان ممتنعًا على الإنسان أن يعلم ويدرك بفهمه ما يمتنع إقامة دليل قاطع يلزم أن ثالوث الأقانيم يمتنع معرفته بالعقل، والجواب أن يقال: يمتنع الوصول بالعقل الطبيعي إلى معرفة ثالوث الأقانيم الإلهية)[1].

والخلاصة: أن إدراك ثلاثية الله ووحدانيته التي يقول بها توما ويؤمن بها هي من الحقائق الإيمانية التي هي فوق طاقة البشر لذلك لا يحاول أحد أن يدرك كون الله ثلاثيًا وواحدًا وعليه فقط أن يسلم بهذه العقيدة دون جدل أو نقاش أو تحليل أو تفسير، وهذا في رأي توما، لكن في مقابل هذا توجد بعض العقائد الإلهية التي يستطيع العقل الإنساني أن يصل إليها وهذا مثل وجود الله وكونه واحدًا.

ويعلل توما عدم إمكانية إدراك ذات الله الثلاثية الواحدة بأن إدراك جوهر الأشياء وحقيقتها لا يتحقق إلا عن طريق الحس وعلى هذا فكل ما لا يقع تحت الحس لا تُدرك حقيقته ولا يعرف جوهره (فكل ما لا يقع تحت الحس لا يدركه عقل الإنسان)[2]، ولما كان جوهر الله وحقيقته أنه ثلاثي وواحد لا يقع تحت الحس لم يمكن لعقل الإنسان أن يدرك هذه الحقيقة.

وإذا كان عقل الإنسان عاجزًا في هذا الجانب فإنه غير عاجز في إدراك وجود الله؛ (لأن عقلنا يتأدى بالمحسوسات أي يصل بالمحسوسات إلى معرفة الله بأن يعرف عن الله إنه موجود وما شاكل هذا من المعلومات التي لا بد من نسبتها إلى

---

(١) كتاب الخلاصة اللاهوتية، المطبعة الأدبية، بيروت – لبنان ١٩٨١م.

(٢) مجموعة الردود، ص ٩.

المبدأ الأول)[1].

ويخلص توما إلى تقعيد القاعدة التي تقول: "**بعض المعقولات الإلهية ذاتية المنال للعقل أي يمكن للعقل الإنساني أن يدرك ذاتيتها، (ولكن بعضها من وراء طاقة العقل الإنساني فلا تصل مقدرته إلى إدراك هذا البعض ألبتة)**[2].

ثم يدلل توما على صدق قوله **بأن بعض الحقائق الإلهية لا تدرك بالعقل، وبعضها يدرك بالعقل الإنساني غير الطبيعي أي الخاصة من الناس، أما العقل الطبيعي – ويقصد به عقل العامة من الناس – فلا يستطيع إدراك هذا أو ذاك، يدلك على هذا تفاوت العقول في مراتبها ودرجات ذكائها ضاربا المثل برجلين**[3]:

أحدهما: **أدق نظرًا من الآخر فينظران إلى شيء من الأشياء فمن كان أسمى عقلاً فإنه يدرك من نظره إلى هذا الشيء معلومات كثيرة يصعب إدراك بعضها على الرجل الآخر لذلك لا يمكنه معرفتها أبدًا، فهذا مثل الرجل الأمي الذي لا يستطيع إدراك الاعتبارات الفلسفية الدقيقة التي يدركها الفليسوف ويعجز عنها الأمي.**

والمعنى كما يقول المحقق[4]: **أن عجز القوة المدركة عن إدراك شيء من الأشياء راجع لواحد من أمرين إما لأن الشيء ليس موضوعًا للقوة أي ليس هذا الشيء من مجال إدراك هذه القوة وذلك مثل قوة الإبصار فإنها تعجز عن**

---

(١) مجموعة الردود، ص ١٠.

(٢) السابق، ص ١٠.

(٣) السابق، ص ١٠، ١١.

(٤) ينظر: هامش مجموعة الردود، ص ١١.

إدراك الأصوات لأن الأصوات ليست مجالاً ولا موضوعًا للإدراك البصري.

إما لأن هذا الشيء المدرك هو من مجالات هذه القوة لكن لا توجد الظروف المناسبة لأداء هذه القوة لمهامها كالنور شديد الضياء إذا تلاقت معه عين الخفاش، فمع أن مهمة عين الخفاش هو الإبصار إلا أنه وجدت ظروف حالت بينها وبين أداء مهمتها فما يدركه الفيلسوف ويعجز عنه الأمي مثله مثل الخفاش والنور شديد الضياء حيث الحقائق الإلهية التي يدركها الفيلسوف هي من مجالات عقل الأمي لكن وجدت ظروف عند الرجل العامي حالت بينه وبين إدراك الحقائق التي أدركها الفيلسوف، أي أن وجود الله ووحدانيته من مجالات الإدراك العقلي وعدم إدراك العامي أو الأمي لها راجع لعدم تناسب عقل الأمي مع هذا الإدراك إذن التفاوت بين العقول يؤدي إلى إمكانية إدراك إنسان لبعض الحقائق الإلهية وعجز إنسان آخر عن إدراك هذه الحقائق، فإذا كان الفيلسوف يدرك مدركات من الحقائق الإلهية أكثر مما يدركه الأمي فإن الملاك يدرك حقائق إلهية أكثر مما يدركه الفيلسوف[١]، وما يدركه الله من نفسه أكثر وأعلى مما يدركه الملاك، إلا أن التفاوت الذي بين إدراك الملاك للحقائق الإلهية وإدراك الله لنفسه ليس من نوع التفاوت الذي بين الفيلسوف والعامي فهذا النوع من التفاوت خاص بالنوع الإنساني وعقل الملاك تجاوز هذا النوع من التفاوت وهو الذي يكون بين شيئين متساويين في الحقيقة لكن جدت ظروف أدت إلى التفاوت بين هذا وذاك لعلوه شرفًا ومكانة "فالملاك يعرف الله بمعلول هو أشرف من الإنسان لأنه يعرفه بجوهر نفسه وجوهر الملاك الذي يتوصل به إلى معرفة الله معرفة طبيعية، هو

---

(١) مجموعة الردود، ص ١١.

أشرف من الأشياء المحسوسة التي يدركها عقل الفيلسوف أو عقل الأمي بل أشرف من النفس الإنسانية التي يترقى بها الإنسان إلى معرفة الله، وعقل الله يفوق عقل الملاك أكثر بما لا يقاس مما يفوق هذا عقل الإنسان)[(١)].

وبهذه الصورة التي ضربها توما لإدراك الفيلسوف والأمي، وإدراك الملاك للحقائق الإلهية وإدراك الله لذاته يريد توما أن يقول بأن اختلاف الإدراك قد يكون راجعًا لظروف جدَّت على العقل المدْرِكْ مع تساويهما في أصل الإدراك فطبيعة هذا العقل وذاك العقل واحدة وقوتهما في الإدراك واحد: إلا أن الاختلاف في الإدراك راجع إلى ظروف بعيدة عن طبيعة العقل وقدرته على الإدراك لكن قد يكون الاختلاف في الإدراك راجع إلى طبيعة العقل المدرك وشرفه ومكانته وقدرته وهذا مثل الاختلاف الذي يكون بين إدراك الفيلسوف وإدراك الملاك فهذا راجع لأن عقل الإنسان حتى لو كان فيلسوفًا ليس في شرف عقل الملك ومكانته وقدرته على الإدراك، ومثل الاختلاف الذي يكون بين إدراك الملاك لبعض الحقائق الإلهية وإدراك الله لنفسه.

ولعل توما يريد أن يقول لنا: إذا كنا نحن البشر وعلى القمة الفلاسفة منهم لا نستطيع أن ندرك كون الله ثلاثيًا وواحدًا لأن إدراكنا مرتبط بالأشياء المحسوسة فإن الملاك يمكن أن يدرك هذه الحقيقة الإلهية لأنه يدرك بجوهر نفسه أي أن وسيلة الإدراك عند الملاك هي جوهر نفسه وجوهر الملاك الذي يدرك به الله أشرف من الإنسان ونفس الإنسان، وكذلك إدراك الله لنفسه فلأنه أعلى وأشرف من الموجودات كلها حتى الملاك فإنه يدرك حقيقة نفسه وأنه ثلاثي وواحد ولا غرابة في هذا عند توما الإكويني؛ (لأن قوة التعقل التي

---

(١) مجموعة الردود، ص ١١.

هي تعقله تعالى تكافئ جوهره ولهذا فإنه يدرك عن نفسه أنه ما هو أكمل إدراكًا ويدرك جميع ما هو معقول فيه)(١).

ويعود توما إلى الملاك مرة ثانية ليؤكد أن من شرط معرفة الأشياء أن تكون القوة المدركة مكافئة للحقيقة المدْرَكَةُ ومساوية لها ولما كان الملاك يدرك الحقائق بجوهر نفسه فإنه يعرف من الله أكثر مما يعرفه الإنسان لكن هذا الملاك مع إدراكه لبعض الحقائق الإلهية التي يدركها بجوهر نفسه لا يستطيع أن (يعرف معرفة طبيعية أن الله ما هو لأن نفس جوهر الملاك الذي يتأدى به إلى معرفة الله معلول غير مساوٍ لقوة العلة)(٢). وهي الله – ﷻ –.

ومعنى هذا أنه لا يمكن إدراك قوة لحقيقة من الحقائق إلا إذا كان هناك تكافؤ ومساواة بين القوة المدرِكة والحقيقية المدركة بمعنى " أن يكون في المعلول وهو الشيء المدرك كل ما في العلة وهي الذات الإلهية التي هي علة كل شيء من الكمال (بحيث إن العلة لا يمكنها أن توجد معلولاً أكمل منه وكل المعلولات المحسوسة كالإنسان مثلاً وغير المحسوسات كالملائكة مثلاً يمكن لله أن يوجد أكمل منها"(٣)، إذن لا يستطيع الملاك أن يدرك من الحقائق الإلهية مثل ما يدركه الله من نفسه لأن الملاك ليس متكافئًا مع الذات الإلهية وليس مساويًا لها.

---

(١) مجموعة الردود لتوما الأكويني، ص ١١، ١٢.

(٢) السابق، ص ١٢.

(٣) السابق، ص ١٢.

والنتيجة التي وصل إليها توما الأكويني **أنه (يستحيل على الملاك أن يعرف بمعرفته الطبيعية جميع ما يعقله الله عن نفسه وليس كل ما يعرفه الملاك بقوته الطبيعية يكون عقل الإنسان كفؤ لإدراكه)[1].**

وحتى لا يعترض أحد على هذا الذي يقوله توما وهو أن الحقائق الإلهية التي يدركها الله من نفسه لا يدركها الملاك جميعها وما يدركه الملاك لا يستطيع الإنسان أن يدركه كله فقد وصف توما من كذب بهذا بأنه (أبله؛ لأنه ما كذب بهذا إلا لأنه لم يستطع أن يدرك ما أدركه الفيلسوف، لذلك ففعله هذا في غاية الحماقة، وأشد من هذا حماقة ذلك، الإنسان الذي يكذب ما نزلت به الملائكة لمجرد أنه لم يستطيع إدراك ما جاءت به)[2].

ويشير توما بهذا إلى قضية أن الله ثلاثي وواحد وعدم إدراك الإنسان لهذه الحقيقية الإلهية، بأن كل من كذب بهذه الحقيقة يكون أبله وأحمق؛ لأنه يكذب من هو أعلى منه إدراكًا وقوة عاقلة وهو الفيلسوف، ويكذب الملاك الذي نزل بهذه الحقائق[3].

ولنا وقفة مع توما في هذه الأحكام التي توصل إليها، ذلك أننا نسأله من أين له أن الملائكة نزلت بهذه الحقيقة ؟ وهل صحيح أن ينزل الله أمورًا أو حقائق ليس للإنسان سبيل إلى إدراكها ومعرفتها ؟ إنه لو كان الأمر هكذا لما صحت دعوة أي نبي من الأنبياء ولا رسول من الرسل لأنهم جميعهم عرفوا الناس بربهم بالطريقة التي

---

(١) مجموعة الردود، ص ١٢.

(٢) السابق، ص ١٢.

(٣) السابق، ص ١٢.

أعطاها الله لهم وبالحدود والشروط التي وضعها الله للوصول إلى هذا الإدراك وهذه المعرفة وليس منها أن الله ثلاثي وواحد.

ألم يقل عيسى - عليه السلام -: "أيها الآب قد أتت الساعة، مجد ابنك ليمجدك ابنك أيضًا إذ أعطيته سلطانًا على كل جسد ليعطي حياة أبدية لكل من أعطيتَهُ وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته"(١). ففي هذا النص جواز معرفة الإنسان للإله الحقيقي وأنه واحد وأن يسوع المسيح مرسل من قبله، لم يوقف يسوع المسيح معرفة الإنسان للإله الحقيقي على مساواة القوة المدركة للحقائق المدركة، ولم يفرق في معرفة الإنسان للإله بين أن يكون فيلسوفًا أو غير فيلسوف.

وفي نص آخر يقول يسوع: "أنا أظهرتُ اسمك للناس"(٢). ويقول عن الناس الذين أرسل إليهم: "وهم قبلوا وعلموا يقينًا أني خرجتُ من عندك وآمنوا أنك أنت الذي أرسلتني"(٣). الناس كلهم العامي والخاص والفيلسوف علموا يقينًا من هو الله، إنه الذي أرسل عيسى إلى الناس ليمجدوا الله وهو الذي عرف الناس اسمه بعد أن أعلمهم به يسوع عيسى – عليه السلام –.

إن من يقرأ الأناجيل وبخاصة الإصحاح السابع عشر من إنجيل يوحنا سيضع يده على تلك الطرق التي رسمها عيسى للناس لكي يعرفوا ربهم دون فلسفة ودون مساواة لجوهر قوة الإدراك لجوهر الذات الإلهية المدركة.

---

(١) أنجيل يوحنا الإصحاح ١٧، ١ – ٣.

(٢) السابق ١٧، ٦: ٨.

(٣) السابق ١٧، ٨.

وفي الاستدلال على الحقيقة التي يؤمن بها توما الأكويني وهي أن العقول متفاوتة في إدراكها للأشياء وأن ما يدركه الإنسان العامي من الحقائق أقل مما يدركه الفيلسوف، وما يدركه الفيلسوف من هذه الحقائق أقل مما يدركه الملاك، وما يدركه الملاك أقل مما يدركه الله من نفسه، يذكرنا توما بأن كل إنسان منا يدرك من نفسه أنه لا يعرف كل شيء في الكون وإنما يعرف قليلاً من حقائق هذا الكون وأما أكثر الحقائق فليس للإنسان بها معرفة ذلك، إننا نجهل كثيرًا من خواص الحواس والذي نعرفه من هذه الخواص التي ندركها بحواسنا لا يمكننا معرفته حقيقتها حق المعرفة أو المعرفة الكاملة، فعلى سبيل المثال لا الحصر إن (عملية الخلق تحتاج إلى حرارة تساوي حرارة قلب الشمس وليس في إمكان العلم الحديث رغم وجود المفاعلات الذرية الحصول الآن على مثل هذه الحرارة) [(١)]، فإذا كان ذلك كذلك في المحسوسات فما أعجزنا وما أعجز عقولنا عن إدراك جميع المعقولات والاطلاع عليها وبخاصة (ذلك الجوهر السامي الجلال المترفع عما سواه)[(٢)].

وما يقوله توما من اختلاف الإدراك ما بين إنسان وإنسان، وإنسان وملاك، وملاك والإله الحق هو قول صحيح عقلاً ومنطقًا وواقعًا.

وما يقوله توما عن عجز الإنسان عن إدراك جميع المعقولات وبخاصة ما يتعلق بالذات الإلهية هو حق وصدق ولكن ليس من الحقائق الإلهية ولا

(١) دراسات في علم الكلام والعقيدة، د/ جميل محمد أبو العلا، ص ٢٨، مطبعة قاصد خير، ط: الأولى سنة ١٩٨٤م.

(٢) مجموعة الردود لتوما الأكويني، ص ١٢.

من المعقولات ما يدعيه توما من أن الله ثلاثي وواحد لأنه وإن كان العقل والمنطق يرفضان هذا الزعم فإنه لا يوجد نص واضح وصريح يقول بأن الله ثلاثي واحد.

والخلاصة التي انتهى إليها أنه (ليس كل ما يقال على الله إن كان العقل لا يمكنه تحققه يجب أن نرفضه للحال على أنه باطل)(١).

نعم ليس في مقدور الإنسان أن يدرك حقيقة الذات الإلهية.

يقول الإمام محمد عبده: (وأما الفكر في ذات الخالق فهو طلب للاكتناه من جهة وهو ممتنع على العقل البشري، لما علمت من انقطاع النسبة بين الوجودين ولاستحالة التركيب في ذاته، وتطاول إلى ما لا تبلغه القوة البشرية من جهة أخرى، فهو عبث ومهلكة: عبث؛ لأنه سعى إلى ما لا يدرك، ومهلكة؛ لأنه يؤدي إلى الخبط في الاعتقاد؛ لأنه تحديد لما لا يجوز تحديده، وحصر لما لا يصح حصره(٢)، ولكن لا يلزم على هذا التسليم بأن الله ثلاثي وواحد في آن واحد، ولا يلزم على هذا عدم إنكار ثلاثية الإله ووحداينته في آن واحد، لأن تناقض هذا من البدائة العقلية التي لا ينكرها إلا معاند، وليس هذا الإنكار لأن العقل لا يمكنه من تحققه وإنما لأنه لا يجوز تعقله إذ أنه حين يقال هذا ثلاثي يبطل تلقائيًا - بدون بحث أو تعقل أو تحقق - أن يكون واحدًا، وحين يقال هذا واحد يبطل أن يكون ثلاثيًا، فضلاً عن هذا فإنه لم يرد نص مقدس من عند الله - ﷻ - إلى نبي من أنبيائه يقول بأن الله ثلاثي

---

(١) مجموعة الردود لتوما الأكويني، ص ١٣.

(٢) رسالة التوحيد للإمام محمد عبده، ص ٤٣، كتبة الأسرة سنة ٢٠٠٥م - الهيئة المصرية العامة للكتاب.

وواحد وإذا وجد في انجيل من الأناجيل مثل هذا فإن ما قاله عيسى في النصوص التي ذكرناها سابقًا من إنجيل يوحنا يُبطل كل ما يقال غير هذه الوحدانية التي نص عليها عيسى وجاءت في إنجيل يوحنا.

شيء آخر يؤكد بطلان ما يدعيه توما من أن الله ثلاثي وواحد وهو أنه حين قسم الحقائق الإيمانية الإلهية قال بأن الحق الذي لا يمكن لأي عقل إنسان إدراكه هو أن الله ثلاثي وواحد، أما الحق الإيماني الذي يمكن للعقل الإنساني إدراكه فهو أن الله موجود وواحد، وهذا تناقض واضح عندما نجد توما يقول بثلاثي وواحد في آن واحد فكيف يتسنى لتوما بعد أن يثبت الوحدانية لله ويسلك المسلك التنزيهي بالنسبة لله – ﷻ – ثم ينادى بثلاثي وواحد بمعنى أن كون الإله عبارة عن ثلاثة في واحد، وواحد في ثلاثة وهذا جمع بين نقيضين كما يقول صاحب حاشية الدسوقي: (فجمعوا بين نقيضين وحدة وكثرة) [(١)].

ولما أراد توما أن يخرج من هذا التناقض الواضح في هذه القضية عمد إلى تقسيم الحقائق الإيمانية إلى قسمين أو حقين – قسم – أو حق لا يمكن لأي عقل إنسان إدراكه وهو أن الله ثلاثي وواحد – وقسم – أو حق إيماني آخر يمكن للعقل الإنساني إدراكه وهو أن الله موجود وواحد.

وهذا اضطراب وتناقض أيضًا، إذ أنه يقال لتوما: ما الفرق بين الوحدانية المرتبطة بالثلاثية والوحدانية المرتبطة بالوجود حيث قررت بأنه لا يمكن

---

(١) حاشية الدسوقي على أم البراهين، محمد بن أحمد ابن عرفة المالكي الدسوقي، ص ١١٢، ١١٣، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط: الأولى ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م.

إدراك أن الله ثلاثي وواحد ثم قلت في القسم الثاني الذي يمكن إدراكه أن ألله موجود وواحد ؟

وإذا كان هذا تناقض بينًا وواضحًا، إذن لم تكن هذه الحقائق الإيمانية وحيًا إلهيا؛ لأنه لا تناقض في أي وحي إلهي وإنما التناقض يكون في العقل الإنساني أيا كانت درجة هذا العقل في الفهم والذكاء والمعرفة.

كما أن الإيمان بالله لا يكون إيمانًا حقيقيًا إلا إذا استقر في مضمونه أن الله – ﷻ – متفرد بالوحدانية والكمال بيده الأمر والتدبير لا يشاركه في أمره وملكه أحد غيره ومن ثم فهو المتفرد بالعبودية، وإلا انتفى الإيمان من أساسه)[1].

ولما كان الإسلام هو خاتم الرسالات الإلهية وهو الدين الذي اشتمل على كل العقائد الإلهية التي أنزلها الله في كتبه السابقة على الإسلام، وهو الدين الذي يُحتكَمُ إليه في أي خلاف حول العقائد الإلهية بناءً على قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الحَقِّ ﴾[2]، لما كان الإسلام هكذا فقد توالت آيات كثيرة تتضمن الإخبار عن التوحيد والصفات العُلا وتركز على الوحدانية وتنفي أي شريك له) [3]، منها على سبيل المثال لا الحصر قوله تعالى:

---

(١) قضية الألوهية في الفكر الإسلامي، د/ محمد العدل الباز، ص ١٨٠.

(٢) سورة المائدة آية: ٤٨.

(٣) لوامع اليقين في أصول الدين، د/ عبد الله يوسف الشاذلي ج ١ ص ٢٠٥، المكتبة الأزهرية للتراث ١٤٣٥هـ ٢٠١٤م.

﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾[(١)]، وقوله – ﷻ –: ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾[(٢)]، وقوله –ﷻ–: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[(٣)]، وقوله–ﷻ–: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[(٤)].

فالمتأمل في هذه الآيات القرآنية الكريمة يجد فيها البيان الواضح والدليل القاطع لإثبات وحدانية الله – ﷻ – بعيدة عن شوائب الشرك وبعيدة عما يقول به توما بأن الله ثلاثي وواحد.

يقول الباقلاني في ذلك: (ويجب أن يعلم أن صانع العالم جلت قدرته واحد أحد ومعنى ذلك أنه ليس معه إله سواه) [(٥)]؛ لأن التوحيد في الحقيقة هو الأصل الأول والمصدر الأساسي الذي نادت به الديانات السماوية كلها: اليهودية، والمسيحية، والإسلام، ولكن ما يميز الإسلام العظيم أنه دين نادى بالوحدانية الخالصة من شوائب الشرك وذلك في وضوح لا غموض فيه كما يقول صاحب كتاب حضارة العرب: (لا شيء أكثر وضوحًا وأقل غموضًا من أصول الإسلام

---

(١) سورة البقرة آية: ٢٥٥.
(٢) سورة الإسراء آية: ٤٢.
(٣) سورة الأنبياء آية: ٢٢.
(٤) سورة المؤمنون آية: ٩١.
(٥) الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به لإمام المتكلمين سيف الإسلامي القاضي أبي بكر بن الطيب الباقلاني، ص ٣٣، تحقيق وتعليق وتقديم: المحقق الحجة الإمام: محمد زاهد بن الحسن الكوثري، ط: الثانية ١٣٨٢هـ ١٩٦٣م، مؤسسة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع.

القائلة بوجود إلـه واحد، فللإسلام أن يباهي بأنـه أول دين أدخل التوحيد الخالص من شوائب الشرك إلى العالم) [١].

لذا فإن الإسلام يرفض ذاتًا إلهية ثلاثيـة وواحدة؛ وذلك لأنـه (دعوة إلـى إله منزه عن لوثـة الشرك منـزه عن جهالـة العصبية منزه عن التشبيه الذي تسرب من بقايا الوثنيـة إلـى الأديـان الكتابيـة فالله الـذي يؤمن بـه المسلمون إله واحد لم يكن لـه شركاء[٢]، ولم يكن ثلاثي وواحد.

وما سميت سورة الإخلاص وهي السورة رقم ١١٢ فـي القرآن الكريم – إلا لأنها نـادت بالوحدانيـة الخالصـة حيث قال سبحانه لنبيـه محمدًا – ﷺ – ولكل الرسل والأنبيـاء – عليهم السـلام – وكل مسلم فـي أي أمـة من الأمـم ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّـهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾. فالأحديـة فـي الآيـة تنـافي الثلاثيـة التـي يقول بها تومـا الأكويني، والإلـه الـذي لـم يلـد ولـم يولـد ينـافي ادعـاء تومـا بالثلاثيـة التـي يكون عيسـى أحد أركانهـا، وقولـه سبحانـه عن الإلـه الحق: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّـهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾. ينفـي الثلاثيـة من جذورها.

فقد ذهب علماء الإسلام[٣] إلى أن الدعوة إلى التوحيد المطلق الخالص لله –

---

(١) حضارة العرب، غستاف لوبون، ترجمة: عادل زعيتر، ص ١٢٥، مطبعة الحلبي – مصر، بدون تاريخ.

(٢) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، عباس محمود العقاد، ص ٥٠، ط: دار الهلال سنة ١٩٦٩م.

(٣) يراجع في ذلك: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تأليف: أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، ج ٤ ص ٢٤٢، دار المعرفة – بيروت – لبنان، الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله =

ﷻ – من شوائب الشرك قد اتضح بجلاء وثبت بيقين واستجمع بوجه كامل في هذه الآيات الأربع المكونة لسورة الإخلاص، ففي قوله – ﷻ – : ﴿قل) أي قولاً جازمًا به معتقدًا له عارفًا بمعناه ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ أي قد انحصرت فيه الأحدية، فهو الأحد، أي متوحد بالألوهية لا يُشارك فيها وكذلك المنفرد بالكمال، الذي له الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العليا والأفعال المقدسة الذي لا نظير له ولا مثيل.

﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ الذي يصمد إليه كل مخلوق لا يستغنون عنه، فأهل العالم العلوي والسفلي مفتقرون إليه غاية الافتقار يسألونه حوائجهم؛ لأنه الكامل في أوصافه العليم الذي كمل في علمه والرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، وهكذا سائر أوصافه، ومن كماله – ﷻ – أنه: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ لأنه لا يجانس حتى تكون له من جنسه صاحبة فيتوالد وقد دل على هذا المعنى بقوله: ﴿ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ ﴾[1]. ﴿ وَلَمْ يُولَدْ ﴾

= محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، ج ١٦ ص ٨، ٩، تحقيق: أ/ عماد زكي البارومي، أ/ خيري سعيد، المكتبة التوفيقية سنة ٢٠٠٨م، التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب للإمام فخر الدين الرازي، ج ٢٧ ص ٥٠: ١٥٤ بتصرف، أنوار التنزيل وأسرار التأويل للقاضي ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، ج ٢، ص ٣١٨، ط: الثانية سنة ١٩٥٥م، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، تأليف، محمد بن علي بن محمد الشوكاني ج ٥ ص ٦٧٦: ٦٧٩، تحقيق: أ/ هاني الحاج، المكتبة التوفيقية – القاهرة سنة ٢٠٠٩م، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للإمام العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي ص ١٠٨٢، المكتبة التوفيقية – القاهرة ٢٠١٢م.

(١) سورة الأنعام آية رقم (١٠١).

لأن كل مولود محدث وجسم وهو قديم لا أول لوجوده وليس بجسم ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ أي لا يكافئه أحد أي لم يماثله ولم يشاركه أحد لا في أسمائه ولا في صفاته، ولا في أفعاله – ﷻ –. فقوله: (هو الله) إشارة لهم إلى من هو خالق الأشياء وفاطرها وفي طيّ ذلك وصفه بأنه قادر عالم؛ لأن الخلق يستدعي القدرة والعلم لكونه واقعًا على غاية إحكام واتساق وانتظام، وفي ذلك وصف بأنه حي سميع بصير وقوله أحد وصف بالوحدانية ونفي الشركاء وقوله الصمد وصف بأنه ليس إلا محتاجًا إليه وإذا لم يكن إلا محتاجًا إليه فهو غني وفي كونه غنيًا مع كونه عالمًا أنه عدل، ....، وقوله لم يولد وصف بالقدم والأوّلية وقوله لم يلد نفي الشبه والمجانسة وقوله ولم يكن له كفوًا أحد تقرير لذلك، يقول الإمام القرطبي...، إن القرآن أنزل أثلاثًا ثلثًا معه أحكام، وثلثًا معه وعد ووعيد، وثلثًا منه أسماء وصفات، وقد جمعت قل هو الله أحد الأثلاث.

وهذا هو الحق الذي عليه كل مسلم وكل مؤمن منذ آدم – عليه السلام – إلى محمد عليه الصلاة والسلام إلى يوم القيامة.

الفصل الثاني
في أن الأمور الإلهية المعروفة معرفة طبيعية يناسب أن تُلقى إلى الناس

ومعنى ذلك إن الأمور الإلهية التي يمكن للعقل معرفتها يجب أن تنزل على الإنسان من عند الله.

وصل توما فيما قاله سابقًا إلى وجود حقائق إلهية يمكن لعقل الإنسان إدراكها، وحقائق أخرى لا يستطيع أي عقل إنساني إدراكها مهما كانت درجته في الذكاء والتعقل، وفي هذا الفصل يبني توما على هذه الحقيقة حكمًا يقول فيه: (من المناسب أن يُنزَّل كلاهما – أي ما يمكن إدراكه بالعقل وما لا يمكن إدراكه بالعقل – على الإنسان من لدن الله لتصديقهما واعتقادهما)[1].

وقد رأينا توما يضرب مثالاً على الحقائق الإلهية التي لا يمكن إدراكها بالعقل بكون الله ثلاثيًا وواحدًا، ويضرب مثالاً على الحقائق الإلهية التي يمكن إدراكها بالعقل بكونه تعالى موجودًا وواحدًا[2].، فهذه وتلك من المناسب أن يُنْزِلهما الله على الإنسان ليصدق بهاتين الحقيقتين ويعتقدهما، فيصدق ويعتقد بأن الله ثلاثي وواحد وإن كان عقله لا يستطيع إدراك هذا، ويصدق ويعتقد بأن الله موجود وواحد.

ويريد توما بهذا أن يؤكد لنا أن إدراك الحقائق الإلهية ينقسم إلى قسمين قسم يدرك بالعقل، وقسم لا يدرك بالعقل فإن القسم الذي يدرك بالعقل لا يكفي

---

(١) مجموعة الردود، ص ١٣.

(٢) السابق، ص ٨، ٩.

في إدراكه الاعتماد على العقل وحده لأن هذا سيؤدي إلى مضار ثلاثة[1] لذلك لا بد من اللجوء إلى الإلهام الإلهي في إدراك الحقائق الإلهية التي هي من مجالات إدراك العقل الإنساني.

أما هذه المضار التي تتأتى بسبب الاعتماد على العقل وحده والاستغناء عن الإلهام الإلهي فهي:

الضرر الأول: **أن الذين سيعرفون الله سيكونون قلة وذلك لعدة أسباب:**

السبب الأول: **سوء مزاج[2] في طابع بعض الناس يجعلهم غير قادرين على التعلم ومهما بذلوا من جهد فطباعهم لا تستطيع أن تصل إلى معرفة الله، من هنا يستعاض عن البحث العقلي بالإلهام الإلهي للوصول إلى معرفته.**

وكأن توما يشير إلى طبقة من الناس لا يقبلون التعليم ولا يؤثر فيهم البحث العقلي ولا يستطيعون الوصول إلى معرفة الله بعقولهم فحينئذ يلجأون إلى الإلهام الإلهي للوصول إلى معرفة الله.

السبب الثاني **الذي يدفعنا إلى الإلهام الإلهي لمعرفة الله: انشغال بعض الناس في أمور المنزل ومطالب الحياة الضرورية[3]. والمختلفة فمثل هؤلاء لا يجدون وقتًا للبحث العقلي ولا يجدون وقتا كافيًا للترقي إلى ذروة المطالب الإنسانية النظرية وعلى قمتها معرفة الله.**

السبب الثالث **الذي يدفعنا إلى الإلهام الإلهي: هو التخاذل والتكاسل عند**

---

(١) مجموعة الردود، ص ١٣.

(٢) السابق، ص ١٤.

(٣) السابق، ص ١٤.

البعض من الناس ذلك أن محاولة معرفة الحقائق الإلهية يتطلب معرفة أمور أخرى كثيرة قد يصل إلى وجوب معرفة الأمور الفلسفية كلها[1] لأن النظر في الفلسفة يكاد يكون موجها كله إلى معرفة الله، لأن معرفة ما وراء الطبيعة المتعلق بالإلهيات هو آخر ما يجب تعليمه لذلك فإنه يتعذر على البعض تحصيل هذا الحق لأنه يستوجب بذل جهد كبير للوصول إلى هذا الحق الذي لا يمكن الوصول إليه إلا بشق الأنفس.

والخلاصة: أن محاولة الوصول إلى معرفة الله بطريق البحث العقلي فقط محاولة عقيمة ونتيجتها غير مجدية؛ لأنه لن يصل إلى معرفة الله بهذا الطريق إلا نذر يسير وهذا هو ضرر الاقتصار على البحث العقلي فقط في معرفة الله دون الاستفادة في هذا بالإلهام الإلهي.

الضرر الثاني: ضياع وقت طويل وكبير في الوصول إلى معرفة الله، (فالذين وفقوا إلى معرفة هذه الحقيقة لم يصلوا إلى هذا إلا بعد أمد طويل من الزمان وذلك لأن هذا الحق وهو معرفة الله أو معرفة الحقائق الإلهية بطريق العقل والبحث العقلي بعيد الغور)[2]. لذلك يصعب على أي باحث عقلي ونظري إدراك هذا الحق إلا بوجود ذكاء وفطنة وتأهب عن طريق الممارسة والترويض، فضلاً عن هذا ما ذكره توما سابقًا من الحاجة إلى معرفة أمور كثيرة قبل معرفة هذه الحقائق الإلهية بطريق البحث العقلي مع ملاحظة وجود معوقات أيام الشباب تمنع الشاب من البحث النظري والعقلي أو تقلل منه كالشهوات المختلفة التي تجعل نفس الشاب غير صالحة لتحصيل هذه

---

(١) مجموعة الردود، ص ١٤.

(٢) السابق، ص ١٥.

الحقائق الإلهية[١] وفي ذروتها معرفة الله وذلك لأن المعرفة العقلية لا يمكن الوصول إليها إلا بالتجرد من المحسوسات في حين أن نزعات الشهوات تستميل النفس إلى الشهوات.

والخلاصة: فيما قاله توما من أنه لو لم يكن هناك وسيلة إلى معرفة الله إلا العقل والذكاء الإنساني فقط لبقى الجنس الإنساني خابطًا في أعمق ظلمات الجهل إذ أن معرفة الله التي تجعل الناس في غاية الكمال والصلاح لا يفوز بها إلا النذر القليل من الناس ولا يحصلها هذا النذر القليل أيضًا إلا بعد مدة طويلة من الزمان"[٢].

الضرر الثالث الذي يأتي بسبب الاقتصار على العقل في إدراك الحقائق الإلهية هو أن الأبحاث التي تأتي عن طريق العقل والذكاء الإنساني لا تكون نقية كل النقاء إذ دائمًا يخالطها الباطل بسبب ضعف العقل في أحكامه أو بسبب ما يدخل في العقل من الخيالات والوهميات ولهذا فإن الأمور والحقائق البينة الواضحة القاطعة تبقى محلاً للشك والريبة عند الكثير من الناس لأنهم يجهلون قوة القياس البرهاني وخصوصًا إذا ما علموا أن من العلماء الموصوفين بأنهم حكماء كانوا يعلمون أمورًا متخالفة متباينة.

فضلاً عن هذا ما نجده من أمور حقة وحقائق واضحة ثبتت ثبوتًا بينًا ومع هذا قد خالطها شيء من الباطل الذي لم يقم عليه البرهان الصحيح وإنما فقط لوجود دليل معه أفاد الظن دون اليقين أو دليل سوفسطائي نُزِّل منزلة البرهان القطعي، لذلك كان لا بد من أن يتلقن الناس حق الأمور

---

(١) مجموعة الردود، ص ١٥.

(٢) السابق، ص ١٥، ١٦.

الإلهية من طريق الإيمان بثبات اليقين"[1].

والنتيجة التي استخلصها توما من مناقشة قضية معرفة الحقائق الإلهية عن طريق العقل هي أنه: **"لطف من الله وتفضل منه لفائدة البشر أن يأمرهم بأن يوقنوا الأشياء التي يمكن للعقل أن يجعل فيها نظر البحث يقين الإيمان وذلك لكي يتمكن جميعهم بسهولة من الاشتراك في معرفة الله بمعزل عن كل ريبة وضلال"[2].**

تعقيب: **كان توما الأكويني من فلاسفة القرن الثالث عشر الميلادي وفي هذه الفترة كانت هناك مدرستان تسيطران على الفكر والثقافة وهما المدرسة (الأوغسطينية)[3] نسبة إلى القديس أوغسطين وكانت هذه المدرسة أميل إلى الدراسات اللاهوتية منها إلى الدراسات الفلسفية.**

أما المدرسة الثانية فهي مدرسة القديس (دومنك) [4] وكانت هذه المدرسة أميل إلى الدراسات الفلسفية منها إلى الدرسات اللاهوتية حيث اعتمدت هذه المدرسة على كل فلسفة أرسطو وكان توما من أشهر رجال هذه

---

(١) مجموع الردود، ص ١٦ بتصرف.

(٢) السابق، ص ١٦.

(٣) الأوغسطينية: نسق فلسفي لاهوتي يعتمد على أفكار القديس أوغسطين وتطورت على يد مفكرين آخرين وهي اسم يطلق على جماعتين رهبانيتين أحدهما كاثوليكية والأخرى انجليكانية وسميت باسم القديس أوغسطين. يراجع في ذلك: ويكيبديا الموسوعة الحرة.

(٤) دومنك: هو سانت دومنك دي كرمان وينسب له تسمية القديس عبد الأحد، ولد سنة ١١٧٠م في كاليرويغا الواقعة في كاستيا الأسبانية وهو مؤسس الدومينيكان سنة ١٢١٥م. يراجع: ويكيبديا الموسوعة الحرة.

المدرسة التي كان من أهم سماتها هو التوفيق بين الدين والفلسفة لذلك كانت ثقافة توما تجمع بين الاتجاه الديني والاتجاه الفلسفي وقد لمسنا هذه في دراستنا لنظرية "معرفة الله" عند توما حيث لمسنا ما يلي:

١ – جعل توما العقل والأبحاث العقلية وسيلة من وسائل معرفة بعض الحقائق الإلهية وذلك حين قسم الحقائق الإلهية إلى حقين: حق لا يستطيع الإنسان إدراكه ومعرفته مهما كانت درجة ذكائه وفطنته وهذا كون الله ثلاثيًا وواحدًا، وحق يمكن للإنسان أن يعرفه بالعقل والأبحاث العقلية والنظرية كوجود الله وكونه واحدًا، لكن لأن توما كان قديسًا وعايش الكنيسة ورجال الدين منذ صغره فقد كانت الناحية الدينية أكثر تأثيرًا فيه من الناحية الفلسفية لذلك وجدنا في هذه الدراسة التي نحن بصددها وإن كان قد دعا إلى الاستدلال العقلي والبرهنة العقلية إلا أنه قد قلل من شأن هذه الدراسة وأدخل معها ما سماه بالإلهام الإلهي الذي هو منهج لاهوتي ديني تتبناه الكنيسة.

٢ – دعوة توما إلى الاعتماد على العقل في أبحاث وموضوعات دينية – كمعرفة وجود الله وكونه واحدًا هو صورة من صور التوفيق بين الدين والفلسفة أو بين العقل والنقل والذي كان سائدًا في هذا القرن الذي كان فيه توما الأكويني، وهو المنهج الذي اتبعه توما في دراساته وأبحاثه حيث أدخل بعض الأبحاث الفلسفة المستقاة من فلسفة أرسطو إلى الأبحاث اللاهوتية التي كانت تتبناها الكنيسة.

٣ – مع أن توما قد أدخل الأبحاث الفلسفة وبخاصة القياس البرهاني إلى الدرسات اللاهوتية إلا أنه جعل للدين والأبحاث اللاهوتية السطوة والسيطرة على تلك الأبحاث العقلية بغرض الإلهام الديني على تلك الأبحاث العقلية وبقوله

بوجوب تنزل هذه الأمور الإلهية من عند الله، ولعل هذا كان بسبب نشأته الدينية.

يقول الأب مسعد بولس وهو يتحدث عن سيرة توما وبداية حياته (وتلقى العلوم الابتدائية في دير منتي كسيكا التابع للرهبينة البندكية حيث طرح على معلمه وهو بعد في نعومة أظفاره ذلك السؤال الذي كان له شغلا شاغلاً في حياته وكتاباته ألا وهو: ما الله ؟ فإنه لم يدرس ولم يُعلم، ولم يكتب إلا لكي يرد على هذا السؤال) [١] لذلك اتجه في دراسته إلى الاتجاه الديني فأصبح رجلا من رجال الدين وعضوًا كنسيا بارزًا في الكنيسة المسيحية، على الرغم من الاضطهاد الديني الذي كان سلاحًا مسلطًا على كل من كان له اتجاه فلسفي وعقلي.

---

(١) الوجود والماهية في نظر القديس توما الإكويني والفارابي وابن سينا، وابن رشد، تأليف: الأب، بولس مسعد، ص ٦، مطابع عواد الصياد، القاهرة ١٩٥٥م.

الفصل الثالث

في أن الأشياء التي لا يمكن أن يتطلع طلعها يُناسب أن تُعرض على الناس ليصدقوها تصديق الاعتقاد والإيمان

بمعنى أن الأمور الإلهية التي لا يمكن للعقل معرفتها يجب عرضها على الناس ليؤمنوا بها يؤمن توما بوجوب عرض الحقائق الإلهية على الناس ليعتقدوها ويؤمنوا بها سواء أكانت هذه الحقائق مما يستطيع العقل إدراكها ومعرفتها كوجود الله وكونه واحدًا، أو كانت مما يعجز العقل عن إدراكها ومعرفتها ككونه تعالى ثلاثيًا وواحدًا.

وقد افترض توما اعتراضًا يرد عليه من البعض مفاده أن الحقائق الإلهية التي لا يمكن للعقل معرفتها لا يجب عرضها على الإنسان أو اطلاعه عليها أو مطالبته بالتصديق بها والاعتقاد بمضمونها؛ لأن الحكمة الإلهية تقتضي[1] مراعاة طبيعة كل إنسان وقدراته وبخاصة أنه لا توجد ضرورة توجب تكليف الإنسان لما هو فوق طاقته.

وقد ردَّ توما هذا الاعتراض بل أوجب عكسه حيث رأى أنه من المناسب عرض هذه الأمور التي لا يستطيع العقل إدراكها على الإنسان ليصدق بها اعتقادًا وإيمانًا لأن "مثل هذه الحقائق ضروري تلقينها بالوحي من قبيل الضرورة المطلوبة مطلقًا للغاية، ومن قبيل الضرورة المطلوبة لحسن الوجود"[2].

---

(١) مجموعة الردود، ص ١٧.

(٢) هامش مجموعة الردود، ص ١٧ (المحقق).

والمعنى الذي يريد المحقق[١] أن يقوله هو أن توما وجد أن الضرورة توجب عرض هذه الحقائق التي لا يستطيع العقل إدراكها - على الإنسان ليصدق بها ويعتقدها اعتقادًا إيمانيًا سواء كانت هذه الضرورة هي الضرورة المطلوبة مطلقًا أو الضرورة المطلوبة لحسن الوجود.

ولكي يبطل توما هذا الاعتراض وضع البراهين والأدلة التي تقول بضرورة عرض هذه الحقائق على الإنسان بطريق الوحي.

الدليل الأول: لإثبات أن الضرورة تقتضي أن يكلف الله الإنسان باعتقاد الأمور التي هي فوق طاقته اعتقادًا يقينيًا.

يقرر توما حقيقة يراها أمرًا بديهًا وهي أن الإنسان – أي إنسان – لا يميل إلى شيء من الأشياء ولا يشتاقه ولا يبذل جهدًا في سبيله إلا إذا كانت عند هذا الإنسان معرفة سابقة بهذا الشيء. فيقول: "ليس أحد يميل بشوقه وجهده إلى شيء ما لم تكن قد سبقت إليه معرفته"[٢].

يؤكد هذا يوسف كرم حيث يقول: (والقديس توما ... يقدم لنا مثالاً واضحًا على الفرق الذي يضعه بين العقل والإيمان ....، فيقول – يقصد توما – أن الإنسان يتشوق السعادة بطبعه، والله سعادة الإنسان وما يتشوق بالطبع يعرف بالطبع)[٣]. ثم يبني توما على هذه الحقيقة أنه لكي يكون الإنسان مشتاقًا إلى الحقائق الإلهية التي لا يمكن إدراكها بالعقل أنزل الله

---

(١) وهو محقق كتاب مجموعة الردود لمطران نعمة الله أبي كرم، مستشار مجمع الكنيسة الشرقية.

(٢) مجموعة الردود، ص ١٧.

(٣) تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط، يوسف كرم، ص ١٤٤، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة – القاهرة ٢٠١٤م.

هذه الحقائق عن طريق الوحي وكلف الإنسان بها تصديقًا وإيمانًا، أي أن إيجاد الميل والشوق في نفس الإنسان لشيء من الأشياء وليكن معرفة الحقائق الإلهية يلزمه سبق معرفة هذا الإنسان بهذا الشيء لذلك أنزل الله هذه الحقائق الإلهية على الإنسان بطريق الوحي فيتحصل الميل والشوق لمعرفة هذه الحقائق فيبذل الإنسان الجهد والفكر في سبيل ذلك.

ثم يقرر توما حقيقة أخرى وهي أن العناية الإلهية قد أعدت الناس لخير أسمى وأعلى من أي شيء في هذه الحياة فاقتضى ذلك – أي جاهزية الناس للخير الأسمى – استدعاء ذهن الإنسان وشحذه لما هو أعلى وأسمى مما يمكن تحصيله في هذه الحياة كي يتعلم " أن يتشوق ما يفوق حالة الحياة الحاضرة وينزع إليه بجهد الدرس والطلب"(١).

ولكي يؤكد توما صحة هذه الحقيقة – وهي عرض أمور على الناس مع أنها فوق طاقتهم – بأن هذا أمر تفرد به الدين المسيحي على وجه الاختصاص إذ أنه يَعِدُ بوجه الخصوص بخيرات روحية وأبدية. ولهذا نرى أنه في الدين المسيحي يعرض على الناس أمور كثيرة تفوق طور الحس البشري"(٢).

هكذا وضعنا توما في معادلة معقدة أو منهجية مركبة لكي يثبت أن الضرورة تقتضي تكليف الله للعباد بما لا يطاق وبما لا تستطيع عقولهم إدراكه أو معرفته وهنا نواجه توما بعدة حقائق:

١. أن كل ما قرره في هذه المعادلة أو من هذه المنهجية معرض للنقض

---

(١) السابق، ص ١٨.

(٢) السابق، ص ١٨، كتاب الخلاصة اللاهوتية للقديس توما الاكويني، المجلد الأول، ص ٢٩٩، ترجمة: الخوري بولس عواد، المطبعة الأدبية، بيروت سنة ١٨٨١م.

والإبطال لأن هذا الذي قرره ليس بالحقائق المسلمة حتى يحق له أن يبني عليها أحكامًا أو حقائق، ويا ليتها كانت أحكامًا متعلقة بأمور يحسها الإنسان أو يشاهدها في الواقع حتى تكون مقبولة، وإنما هي أحكام غيبية يصعب على أي عقل إدراكها أو استيعابها.

فقوله إن الإنسان لا يميل إلى شيء أو يشتاقه إلا إذا كانت له به سابق معرفة هو قضية غير مسلمة لأن كثيرًا من المسيحيين يشتاقون لزيارة بيت المقدس وهم لا يعرفون بيت المقدس معرفة يقينية وكثير من المسلمين يشتاقون لزيارة البيت الحرام ومكة المكرمة وغار حراء وهم لا يعرفون شيئًا عن هذه الأماكن أو ليست عندهم معرفة يقينية بهذه الأماكن المقدسة، وقد تجد شابًا مغامرًا يشتاق لرؤية الفضاء والنزول على القمر مع أنه من المؤكد أنه لا يعرف شيئًا عن هذا الفضاء أو سفينة الفضاء التي ستحمله إلى كوكب القمر أو زحل أو غيره وأن كل ما يعرفه عن هذا الأمورما هو إلا قشور أو معارف متخيلة لا تعطي معرفة يقينية مفيدة.

٢. وقوله: "إن العناية الإلهية قد أعدَّت الناس لخير أسمى" تعميم غير صحيح ينقضه ويبطله وجود الجرائم المختلفة في كل مجتمع بل قد لا يخلو مجتمع من المجتمعات من الجرائم الفظيعة والبشعة.

والجرائم الإنسانية في الحروب التي وقعت هنا وهناك والتي ستقع هي من أكبر الشواهد والدلائل على أنه ليس كل الناس قد أعد لخير أسمى، والفريسيون الذين تآمروا على يسوع[١]. لقتله من المؤكد عندكم أن العناية الإلهية لم تعدهم للخير الأسمى، والحواري الذي أرشد اليهود والرومان على

(١) إنجيل متى، الإصحاح الثاني عشر: ١٤.

يسوع لم يحظ بالعناية الإلهية لإعداده للخير الأسمى، وأبو لهب عندنا نحن المسلمين والكفار الذين قتلوا في غزوة بدر أو أحد وغير هذا وذاك لم تقبلهم العناية الإهلية ولم تعدهم لخير أسمى.

٣. وتخصيص توما الدين المسيحي بهذه العناية الإلهية التي يترتب عليها عرض أمور كثيرة على الناس مع أنها فوق طاقتهم وقدراتهم البشرية أكبر دليل على فساد التعميم الذي جاء في قوله بأن العناية الإلهية تعد الناس لخير أسمى.

فإذا بطل أن الإنسان لا يشتاق لشيء إلا إذا كان عارفًا به وإذا بطل أن العناية الإلهية تعد الناس لخير أمسى إذا بطل هذا وذاك بطلت هذه الضرورة التي يقول بها توما والتي تقتضي أن يكلف الله الناس بأمور فوق طاقتهم، زد على ذلك أن تكليف الله للناس بما هو فوق طاقتهم ليس من العدل ولا من الرحمة والله منزه عن ذلك يقول سبحانه: ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ... ﴾[1]. يقول صاحب كتاب الكشاف عند معرض تفسيره لهذه الآية: (الوسع ما يسع الإنسان ولا يضيق عليه ولا يحرج فيه أي لا يكلفها إلا ما يتسع فيه طوقه ويتيسر عليه دون مدى الطاقة والمجهود، وهذا إخبار عن عدله ورحمته)[2]. وبناءً على ذلك نجهر بالحق الذي نادى به آخر الأديان وخاتم

---

(١) سورة البقرة آية: ٢٨٦.

(٢) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تأليف: أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، ج ١ ص ١٧٢، دار المعرفة، بيروت – لبنان بدون تاريخ.

الرسالات الإلهية ألا وهو قوله: ﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾[1].

الدليل الثاني: **على أن الضرورة توجب عرض الحقائق الإلهية على الناس كي يؤمنوا بها حتى ولو كان هذا فوق طاقتهم أو من الأمور التي من المستحيل أن تعرفها عقولهم.**

في هذا الدليل يرى توما وجوب عرض الحقائق الإلهية على الناس حتى لو كانت فوق طاقة الإدراك العقلي وذلك من أجل الحصول على عدة فوائد:

الفائدة الأولى: **الحصول على معرفة بالله أقوى وأصدق؛ لأن المعرفة الحقة الصادقة والصحيحة هي التي يكون الإنسان فيها موقنا وجازمًا أنه أي الله فوق كل ما يمكن للإنسان أن يتصور عنه" وهذا يتحقق عن طريق عرض الحقائق الإليهة التي هي فوق طاقة البشر ليؤمنوا بها لأنه إذا عرضت عليه هذه الحقائق الإلهية وتحقق الإنسان من أنها فوق طاقته أدرك أن هذا الإله الذي له هذه الحقائق فوق ما يمكن أن يتصوره الإنسان وفوق ما يتصوره عنه هذا الإنسان، بل إنه حينئذ يدرك "أن الجوهر الإلهي ... يفوق كل معرفة إنسانية فإذا عرضت على الإنسان أمور تتعلق به تفوق عقل البشر يرسخ حينئذ في يقين الإنسان أن الله فوق كل ما يمكنه أن يتصوره"[2].**

هذه فائدة لعلها: **أولى يجنيها الإنسان المسيحي من عرض الحقائق الإلهية عليه مع أنها فوق طاقته.**

الفائدة الثانية: **كسر شموخ النفس الإنسانية وتعاليها، ذلك أن البعض يتباهون ويتفاخرون بعلو ذكائهم وقوة فطنتهم حتى إنهم يعتقدون أو**

(١) سورة البقرة، آية: ٢٨٦.

(٢) مجموعة الردود، ص ١٩.

يتوهمون أنه ليس هناك ما يصعب عليهم فهمه أو يستعصي عليهم إدراكه لدرجة أنهم يزعمون مقدرتهم على معرفة طبيعة الله بعقولهم فقط دون الاستعانة بوحي إلهي أو إلهام رباني وبنوا على هذا الوهم المزعوم حكمًا خاطئًا وهو أن كل ما أدركوه عن الله هو حق لا ريب فيه، أما ما لا تدركه عقولهم فهو باطل عندهم[1] وهم في هذا كالأعمى الذي ينكر ضوء الشمس؛ لأنه لا يستطيع رؤيته، فلكي تتخلص النفس من هذه النزعة المتعالية كان لا بد من عرض هذه الحقائق الإلهية على الإنسان مع أنها فوق طاقته وذلك كي يتواضع ويخلو إلى طلب الحق بتؤدة وخضوع وخشوع لصاحب هذه الحقائق التي هي فوق الطاقة البشرية.

الفائدة الثالثة: وقد أشار إليها المحقق بأن عرض الحقائق الإلهية التي هي فوق طاقة البشر على الناس يكسب العقل كمالا جزيلاً من معرفته الحقائق الفائقة وتصديقه إياها تصديق اليقين"[2].

والخلاصة: أن عرض الحقائق الإلهية على الناس كي يؤمنوا بها مع أنها فوق طاقتهم ولا تستطيع عقولهم إدراكها أو استيعابها يأتي بفوائد مهمة هي:

١ – وصول العبد إلى معرفة سامية وعالية وصادقة ويقينية.

٢ – كسر جموح النفس وشموخها وتعاليها.

٣ – يكسب العقل كمالا جزيلاً إذا ما أمن وصدق بهذه الحقائق.

---

(١) مجموعة الردود، ص ١٩.

(٢) هامش ١ مجموعة الردود، ص ١٩.

تعقيب: **فهل هذا صحيح؟ وهل هذا أمر معقول؟ وهل هناك نصوص دينية تؤكد صدق هذه الأحكام؟**

أن هذه الفوائد لا يمكن وجودها أو تحققها؛ لأنها كلها مستقاة من قضية مجهولة حيث بنيت هذه القضية على حقائق إلهية وقواعد دينية مجهولة لا يستطيع العقل سر غورها بل يستحيل عليه معرفتها مهما أوتي من قوة الذكاء وعلو الفطنة، فهل يتصور عاقل الوصول إلى نتيجة من مقدمات مجهولة لا يستطيع العقل إدراكها أو فهمها ؟ وهل يتصور عاقل أن يستخرج الذهب من كنز لا تعرف أبوابه بل يستحيل معرفتها ؟ وهل يستطيع قاض أن يحكم في قضية أحداثها ووقائعها مجهولة عنده وأنه مهما حاول فلن يستطيع معرفة هذه الأحداث والوقائع ؟ وهل يستطيع جيش أن ينتصر على عدو مجهول لا يمكن كشفه بل من المستحيل كشفه؟ وهل يمكن استخراج شيء من لا شيء ؟ أو الوجود من العدم.

إن مقتضى الوصول إلى المعرفة اليقينية عن طريق عرض الحقائق الإلهية على الناس مع عدم قدرتهم على إدراكها، ومنها على سبيل المثال أن يكون يسوع قد عرضت عليه هذه الحقائق التي منها أن الله ثلاثي وواحد فتلقاها بالقبول وصدق بها ووصل بهذا إلى المعرفة اليقينية الصادقة، ولكن أحدا لم يقل هذا، كما أنه لا يستطيع أحد أن يقول هذا لأن هذه الثلاثية لم تظهر إلا بعد نهاية عيسى على الأرض بعدة سنين وليس يوجد نص واضح وصريح في أي إنجيل من الأناجيل يقول بأنه قد أوحى إلى عيسى بأن الله ثلاثي وواحد، ولا يوجد نص واضح وصريح في أي إنجيل من الأناجيل أن يسوع صرح للناس أو للحواريين بأن الله ثلاثي وواحد.

بل على العكس من ذلك فقد صرح المسيح - ﷺ - بالوحدانية مؤيدا وداعيًا لها فقد ورد في إنجيل مرقس: أن المسيح لما (جاءه واحد من الكتبة سأله أية وصية هي أول الكل... فأجاب يسوع إن أول الوصايا هي اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد، وتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك هذه هي الوصية الأولى)(١).

فهذا النص يثبت أن عيسى - ﷺ - كان داعيًا ومؤيدًا للوحدانية خلافًا لما يقول به توما من أن الله ثلاثي وواحد.

كما جاء في إنجيل متى ما يؤيد ذلك أيضًا، فقد جاء ما نصه (لأنه مكتوب للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد) (٢).

وفي إنجيل يوحنا أيضًا ما نصه: (وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته) (٣) فهذه النصوص تثبت بما لا يدع مجالا للشك أن عيسى - ﷺ - لم يكن بدعًا من الرسل وألزم بالتوحيد نفسه ولمن أُرسل أليهم ولم يشر إطلاقًا إلى التثليث ولم يقل عن وجود هذا التثليث أو الثالوث بأي معنى من المعاني؛ وذلك لأن هذا القول لا يتفق مع الحكمة التي من أجلها بعث الله - ﷻ - كل رسالات السماء فالأنبياء والرسل من لدن آدم إلى سيدنا محمد - ﷺ - جاؤوا من أجل هدف واحد وهو إثبات وحدانية الله تعالى، ووصفه - ﷻ - بكل كمال وتنزيهه - جل وعز - عن كل نقص، وقالوا للناس إن الإله الحق إله واحد

---

(١) إنجيل مرقس الإصحاح ١٢، ٢٨: ٣٠.

(٢) انجيل متى الإصحاح ٤، ١٠.

(٣) انجيل يوحنا، إصحاح، ١٧، ٣.

وما نحن إلا بشر مبلغون عنه – ﷻ –) [1].

وهذا يدل دلالة واضحة على أن الثالوث والتثليث الذي يقول به توما قد أدخل إلى النصرانية من بعد عيسى – عليه السلام – .

يؤيد ذلك ما أكده الدكتور/ أحمد شلبي حيث قال: (دخل بولس النصرانية ....، ووجد الميدان خاليًا فبدأ يضع البذور التي نقل بها النصرانية من الوحدانية إلى التثليث، ووافقت هذه الفكرة الجماهير وكانت الجماهير قد نفرت من اليهودية لتعصبها، ومن الوثنية لبدائيتها، فوجدت في الدين الجديد ملجأ لها وبخاصة أنه أصبح غير بعيد عن معارفهم السابقة التي ألفوها وورثوها عن آبائهم وأجدادهم) [2].

والحق بما صرحت به الكتب السماوية من أن الله – ﷻ – واحدا أحدًا فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد وكذا ما استدل به العلماء من أدلة عقلية تثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن الله – ﷻ – هو المنفرد بالوحدانية بكل معانيها واحدًا في ذاته واحدًا في صفاته واحدًا في أفعاله – ﷻ –.

---

(١) راجع: الرد على أصناف النصارى، على بن زين الطبري، ص ٤٨، تحقيق: خالد محمد عبده، مكتبة النافذة، ط: الأولى سنة ٢٠٠٥م، وتحفة الأريب في الرد على أهل الصليب، عبد الله الترجمان الأندلسي، ص ٨٧، تقديم: د/ محمود علي حماية، مكتبة النافذة.

(٢) مقارنة الأديان، د/ أحمد شلبي، ص ١٣٨، المسيحية، مكتبة النهضة المصرية ١٩٨٤م.

الفصل الرابع

في أن إذعان العقل للأشياء التي هي من الإيمان، وإن كانت هذه تفوق العقل، ليس ضرباَ من الطيش والخفة[(١)]

تقديم:

وضع توما لهذا الفصل عنوانًا طويلا يقول فيه: " في أن إذعان العقل للأشياء التي هي من الإيمان وإن كانت هذه تفوق العقل ليس ضربا من الطيش والخفة، ويريد توما بهذا أن يقول بأن عرض قضايا الإيمان بنوعيها أي التي يستطيع العقل إدراكها والتي لا يستطيع العقل إدراكها ليس عملا طائش أوخفة وسفها، وإنما هو الذكاء والفطنة بل هوالحكمة بعينها، وتوما بهذا يستخف بتلك الآراء التي تمنع عرض الحقائق الإيمانية على العقل إدعاء بأنه ليس هناك وسيلة للتصديق بالحقائق الإيمانية إلا النقل.

وحين ينفي توما الطيش والخفة والسفه عمن يرى عرض الحقائق الإيمانية على العقل فإنه بهذا يصف الذين يمنعون عرض الحقائق الإيمانية على العقل بالسفه والطيش والخفة، هكذا أخذ توما يبرر ما قرره في عنوان هذا الفصل من أن عرض الحقائق الإيمانية على العقل ليس طيشًا وإنما هو الحكمة بعينها والطيش والخفة إنما هو فيمن يمنع عرض الحقائق الإيمانية على العقل اكتفاء بالنقل فقط.

وهنا نلاحظ أن توما رجل فلسفة بجانب أنه رجل دين؛ لأنه يدافع عن العقل ويُفضِّل اتخاذه وسيلة للتصديق بالحقائق الإيمانية، وليس هذا فقط ولكنه فيلسوف أكثر منه رجل دين؛ لأننا نشاهده في استدلالاته على الحقائق الإيمانية

---

(١) مجموعة الردود، ص ٢١.

يكثر من البراهين العقلية، ويقلل من الأدلة النقلية مما يجعلنا نقول: لعله يلتزم بنهج المعتزلة في استدلالهم على الحقائق الإيمانية الإسلامية.

أما عن مبررات دفاعه عن العقل وتفضيل اتخاذه وسيلة للتصديق بالحقائق الإيمانية فهي:

(١) الحقائق الإيمانية نزلت وجاءت من الحكمة الإلهية التي أحاطت علما بكل شيء، وبناء على هذا فإنه إذا اعتقد إنسان هذه الحقائق الإيمانية وأيقن بها كان هذا عملا حكيما وفطنة عالية؛ لأنه اعتقد ما جاءت به الحكمة الإلهية العليمة والخبيرة بكل شيء.

(٢) لأن هذه الحكمة الإلهية أثبتت وجود هذه الحقائق الإيمانية بالآيات المعجزات مما يؤكد صدقها وعدم الشك فيها؛ لأنها أتت على مشهد من الناس ولا تستطيع القدرة الطبعية كلها أن تأتي بمثلها، وكان من هذه الآيات المعجزات:

أ- شفاء المرضى بنوع عجيب ومعجز.

ب- بعث الأموات.

ج- تغيير حركة الأجرام السماوية بنوع عجيب.

د- الأعجب من هذا كله أن الذين شهدوا هذه المعجزات صدقوا بالحقائق الإيمانية مباشرة مع أنهم كانوا أقوامًا أميين، لكنهم حين هبط على قلوبهم الإلهام امتلأوا من موهبة الروح القدس فإذا هم فائزون فوزًا بأسمى درجات الحكمة وقوة الفصاحة والبلاغة(١).

إذن اعتقاد الحقائق الإيمانية التي لا يدركها العقل ليس طيشًا ولا سفهًا

---

(١) مجموعة الردود، ص ٢٢.

ولا خفةً وإنما هو الحكمة والفطنة كما قال توما.

وهنا نلاحظ أنه: **لما كانت الحقائق الإيمانية التي لا يدركها العقل هي أن الله ثالوث وواحد كما قال توما فإن الهدف الذي يرمي إليه توما من هذا هو إثبات أن الله ثالوث وواحد أن هذا نزلت به الحكمة الإلهية لذلك، فإن اعتقاد أن الله ثالوث وواحد ليس طيشًا وسفهًا، وإنما هو الحكمة والفطنة.**

وهنا يأتي سؤالاً يطرح نفسه: **هل صحيح أن الحكمة الإلهية نزلت بالحقيقة الإيمانية التي تقول: " إن الله ثالوث وواحد " ؟ وهل نطق عيسى بهذا ؟ وما الدليل على نزول الحكمة الإلهية بهذه الحقيقة ؟**

إنه لا يوجد دليل واحد على أن الله أنزل هذه الحقيقة، ومن يقرأ الأناجيل لن يجد نصًا واحدًا يقول بهذا.

كما أن من المعلوم أن الديانة النصرانية ديانة سماوية الأصل وهي وليدة اليهودية والتوراة كتاب مقدس عند المسيحيين يؤمنون به ويقدسونه (وإذا طالعنا التوارة فإننا لا نجد في أسفاهرها وبين سطورها كاهنًا يتحدث عن الثالوث ولا نبيًا يهمس بالتعدد، بل إننا نجد جميع أنبياء وكهنة التوراة ينادون ويصرحون بوحدانية الله تعالى وبأنه واحد لا شريك له) [1].

فضلاً عن ذلك فإن الحقيقة التي يقول بها توما وهي أن الله ثالوث وواحد لم تظهر أيام وجود عيسى – عليه السلام – على الأرض، والمعجزات التي ظهرت على يد عيسى – عليه السلام – لم تظهر واحدة منها تصديقًا على أن الله ثالوث وواحد، بل إن هذه الحقيقة لم تظهر إلا بعد رفع عيسى – عليه السلام – من الأرض بسنين عديدة، وقد ظهرت على يد أتباع عيسى – عليه السلام –. وقد سبقت

---

(١) الله واحد أم ثالوث، د/ محمد مجدي فرحان، ص ١٢٨، ط: دار النهضة العربية.

الإشارة إلى ذلك.

أيضًا وجدت نصوص كثيرة في الأناجيل تتعارض مع ما يدعيه توما من أن الله ثالثوث وواحد.

كما أن عيسى – عليه السلام – لم يدع إطلاقًا الألوهية وإنما وصف نفسه بالرسول الإنسان فقد جاء في إنجيل يوحنا ما نصه: (قال لهم يسوع: لو كنتم أولاد إبراهيم لكنتم تعملون أعمال إبراهيم ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلوني وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعه من الله)[(1)].

وجاء في موضع آخر من إنجيل يوحنا أيضًا: (وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته)[(2)].

هكذا نطق عيسى – عليه السلام – بالقول الحق حسبما وردت في إنجيل يوحنا فهذه النصوص تبرهن لنا على ما يلي:

١- أنه لا يوجد إلا إله واحد وهذا حق واضح.

٢- أن عيسى – عليه السلام – لم يقل بالألوهية وهذا أيضًا واضح من خلال عباراته التي نطق بها (أنت الإله الحقيقي وحدك.

٣- أن عيسى – عليه السلام – نسب لنفسه صفة الرسول وذلك واضح أيضًا من عبارته القائل فيها (ويسوع المسيح الذي أرسلته).

(٣) يؤكد توما أن الله ثالوث وواحد وأن الحكمة الإلهية نزلت بهذا مستدلاً على ذلك (بأن جمهورًا عديدًا ليس من العامة وإنما من خاصتهم وأشهرهم حكمة عندما شهدوا هذه المعجزات سارعوا إلى الاستمساك

---

(١) إنجيل يوحنا الإصحاح ٨ فقرة ٣٩، ٤٠.

(٢) السابق الإصحاح ١٧ فقرة ٣.

بعرى الدين المسيحي الذي يُنادي فيه بما يفوق كل عقل إنساني وامتلأ بالتعاليم التي تحذر من الشر وتدعو إلى الخير، والذي دفعهم إلى هذا ليس الضغط عليهم بالعذاب والقهر، وإنما هو قوة المعجزات المذكورة)[١].

وهنا أقول: إن هذا كله من الدعاوي الخيالية وليس من الحقائق الواقعية في شيء، لماذا ؟ لأنه لم يؤمن بعيسى جمهور عديد كما يدعي توما، ولم يوجد الجمهور العديد الذي شاهد هذه الآيات البينات.

لأن كل الذين آمنوا بعيسى في حياته لم يزيدوا على مائة وعشرين رجلاً.

يقول ابن حزم في ذلك: (وأما النصارى فلا خلاف بين أحد منهم ولا من غيرهم في أنه لم يؤمن بالمسيح في حياته إلا مائة وعشرون رجلاً فقط)[٢].

يؤيد ذلك ما جاء في أعمال الرسل ما نصه: (وفي تلك الأيام قام بطرس في وسط تلاميذه وكان عدة أسماء معًا نحو مائة وعشرين)[٣]، وكثير منهم كان من العامة ولم يكن مشهورًا بالحكمة بدليل أن أحد تلاميذ عيسى هو يهوذا الذي أرشد اليهود والرومان على عيسى وعلى مكان تواجده حيث قبضوا عليه وقدموه للمحاكمة[٤].

فقد ورد في إنجيل متى ما نصه: (حينئذ ذهب واحد من الاثنى عشر الذي يدعى يهوذا الأسخريوطي إلى رؤساء الكهنة وقال: ماذا تريدون أن تعطوني

---

(١) مجموعة الردود، ص ٢٢.

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم، الإمام أبو محمد علي بن أحمد، ج١ ص ٣، مكتبة السلام العالمية.

(٣) أعمال الرسل الإصحاح الأول، ١، ١٥.

(٤) متى ٢٦: ١٤ – ١٦ ومرقص ١٤: ١٠، ١١.

وأنا أسلمه إليكم ... ولما كان المساء اتكأ مع الاثنى عشرة، وفيما هم يأكلون قال الحق: أقول لكم إن واحد منكم يسلمني ....، فأجاب يهوذا مُسَلِّمَهُ وقال هل أنا هو يا سيدي، قال له أنت قلت)[1].

وأين الحكمة في الجمهور العديد الذي آمن بعيسى وكان منه هؤلاء التلاميذ الذين هربوا حين قبض الجنود على عيسى ما عدا بطرس ؟ فقد جاء في إنجيل متى ما نصه: (حينئذ تركه التلاميذ كلهم وهربوا ....، وأما بطرس فتبعه من بعيد إلى دار رئيس الكهنة فدخل إلى داخل وجلس بين الخدام لينظر النهاية)[2]، فإن قيل إن الذين هربوا كانوا من الحكماء، فإن هذا يلزم عليه ألا يكون بطرس من الحكماء، وإن قيل إن بطرس كان حكيمًا فإن هذا يلزم عليه ألا يكون الذين هربوا من الحكماء.

(٤) كما يستشهد توما على أن الحقائق الإيمانية التي لا يدركها العقل قد جاءت ونزلت من الحكمة الإلهية وأنها صادقة ويقينية (بأن استرسال القلوب إلى الإذعان بمثل هذه الحقائق والائتمار بمثل تلك الأوامر هو من المعجزات – وقد أقسم توما على هذا – فقال: وأيم الحق – بل إن احتقار المرئيات تشوقًا إلى غير المرئيات دليل ساطع على فعل الإلهام الإلهي)[3].

والذي أراه أن هذه الاستشهادات ضعيفة وواهية؛ لأنها توقعنا في متناقضات متعددة إذ إن مثل هذا الاسترسال والإذعان والتشوق إلى غير

---

(١) إنجيل متى الإصحاح ٢٦، ١٤: ٢٥ باختصار، انجيل مرقص الإصحاح ١٤، ١٠، ١١.
(٢) إنجيل متى، الإصحاح ٢٦، ٥٦: ٨٥، انجيل مرقص، الإصحاح، ١٤، ٥٠: ٥٤.
(٣) مجموعة الردود، ص ٢٢.

المرئيات موجود في ديانات أخرى صحيحة وأخرى غير صحيحة، فهذا هم أتباع الإسلام كان منهم استرسال وإذعان إلى الحقائق الإيمانية وائتمار بالأوامر الإلهية وتشوق إلى غير المرئيات، وبناء عليه يكون هذا الاسترسال والإذعان والتشوق دليلاً على صحة الحقائق الإيمانية الإسلامية، وهذا حق لكن يلزم عليه أن تكون الوحدانية الخالصة حق وصدق وهذا يناقض ما عليه توما من الإيمان بأن الله ثالوث وواحد.

أيضًا: كثير من الديانات البشرية كان في أتباعها استرسال وإذعان وتشوق، هذا موجود عند الديانة البوذية(1).

بل في كثير من الديانات الهندية المتعددة وفي غير الديانات الهندية. فهل نقول إن هذا دليل على أن هذه الديانات وحقائقها الإيمانية نزلت من الحكمة الإلهية أو أنها من فعل الإلهام الإلهي؟

ويرى توما أن الحقائق الإيمانية والآيات البينات والمعجزات الباهرات لم

---

(1) البوذية: هي مجموعة الآراء الفلسفية والدينية التي نشأت عن تعاليم بوذا وأساسها القول بأن حياة الإنسان في الدنيا شر وألم وأن التخلص منها إنما يتم بالاندماج في الوحدة الشاملة وهي النرفانا وسبيل ذلك الزهد ومحاربة الرغبات والشهوات تقول بالتناسخ وتنكر الروحية، والبعث والحساب، ويغلب عليها تشاؤم واضح.

يراجع في ذلك: المعجم الفلسفي، حرف الباء، ص ٣٥، مجمع اللغة العربية، المطبعة العامة لشئون المطابع الأميرية سنة ١٩٧٩م، المعجم الفلسفي، مراد وهبة، ص ١٧٢، باب الباء، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة سنة ٢٠١٦م، مقارنة الأديان والديانات القديمة، الإمام محمد أبو زهرة، ص ٥٣، دار الفكر العربي سنة ١٩٦٥م، مقارنة الأديان بين اليهودية والإسلام، د/ عوض الله حجازي، ص ٥٣، ط الثانية سنة ١٩٨١م

تحدث فجأ، ولم تحدث دفعة واحدة، ولم تحدث بطريق الاتفاق وهذا يعني عنده أن هذه الحقائق الإيمانية والمعجزات الباهرات إنما حدثت ونزلت بتدبير إلهي.

ولعل توما يرمى من حديثه هذا إسباغ القدسية الربانية على الحقائق الإيمانية بما في هذا كون الله ثالوثًا وواحدًا حتى لو كانت هذه الحقائق فوق مقدرة العقل واستحالة إدراك العقل لها أو استيعابها.

أما استنتاج توما نزول الحقائق والمعجزات بتدبير إلهي لم تحدث فجأة ولا دفعةواحدة ولا بطريق الاتفاق فهو استنتاج غير صحيح؛ لأنه ليس بلازم وجود التدبير الإلهي بناء على تلك الكيفية التي نزلت بها المعجزات والحقائق الإيمانية، لأنه لو كان هذا الاستنتاج صحيحًا لكان معنى هذا أن أي عمل أو أي حدث وقع فجأة أو دفعة واحدة ليس به تدبر إلهي وهذا يؤدي إلى أن يكون نزول الكتب المقدسة غير القرآن الكريم ليس فيه تدبير إلهي، وهذا لأنها نزلت دفعة واحدة، وأن يكون عقاب الأمم السابقة ليس به تدبير إلهي وهذا الافتراض غير صحيح أدى إليه دعوى توما بأن الآيات البينات والمعجزات الباهرات لما لم تحدث فجأة ولا دفعة واحدة كان نزولها ومجيئها بتدبير إلهي.

ويسمى توما دخول الناس في المسيحية ارتداد حيث يقول: "إن ارتداد العالم إلى الإيمان المسيحي، وأن هذا الارتداد من أصدق الأدلة على الآيات والقوات الماضية حتى أنه لم تكن هناك ضرورة ثانية لوضوح ظهورها في آثارها ومفاعيلها"[١].

---

(١) مجموعة الردود، ص ٢٣.

وفي هذا الكلام أحكام ثلاثة ومغالطات أيضًا:

الحكم الأول والمغالطة فيه: **هو قوله بأن دخول الناس في المسيحية نوع من الردة، والردة من أول معانيها وأظهره الخروج من دين باطل إلى دين صحيح، ولو كان هذا الحكم الذي قال به توما حكمًا صحيحًا لكل من كان على دين إلهي سابق على المسيحية – ثم ترك هذا الدين ودخل في المسيحية يكون مرتدًا، فاليهودي الذي ترك يهوديته مثل – بولس مثلاً – ودخل في المسيحية مرتد بناء على كلام توما وهذه مغالطة، فضلاً عن هذا فإن ذلك الحكم يجعل الأديان السابقة على المسيحية باطلة والمسيحية التي تقول بأن الله ثالوثا وواحدًا دين صحيح، والحقيقة غير هذا.**

الحكم الثاني والمغالطة فيه: **هو أن توما جعل من ترك بعض الناس لأديانهم ودخولهم المسيحية من أصدق الأدلة على صحة هذه الآيات، وهذه مغالطة، لأنه لو كان هذا الحكم صحيحًا لكان خروج المسيحي من المسيحية الحقة ودخوله في البوذية دليلاً على صدق البوذية وعدم صدق المسيحية وهذا باطل شرعًا وعقلاً ومنطقًا.**

الحكم الثالث والمغالطة فيه: **هو ادعاء توما من أن صدق الآيات والمعجزات التي واكبت المسيحية اقتضى ضرورة عدم إعادة هذه الآيات والمعجزات مرة ثانية لوضوح ظهورها في آثارها ومفاعليها.**

والحق أن معجزات عيسى والآيات التي ظهرت على يديه لا يشك أحد في صدقها ووضوح آثارها لكن لا يصح الجزم بأن هذا هو سبب عدم إعادتها مرة ثانية وبخاصة أنه لم يرد نص إلهي يحدد سبب عدم إعادة هذه الآيات فضلاً عن هذا فإن الأمر يحتمل أن يكون هناك سبب آخر – غير الذي قال به توما

- هو الذي لم يجعل هناك ضرورة لإعادة هذه الآيات والمعجزات ككون كل آية أو معجزة ظهرت على يد نبي من الأنبياء كانت مما اشتهر به قومه.

أضف إلى هذه المغالطة ذلك التضارب الواضح فيما قاله توما من وصفه لهذه الآيات بالصدق ووضوح آثارها ثم قوله بعد هذا بأن تلك الأمور شديدة الاستغلاق فقد قال أيضًا: " ولو أن العالم قد تسارع إلى تصديق مثل تلك الأمور الشديدة الاستغلاق"(١).

ومما يدعو إلى العجب من موقف توما هو ذلك التضارب والاضطراب البين حين وصف هذه الآيات والمعجزات بأنها من أصدق الأدلة، ثم إذا به بعد كلمات قليلة يقول: "ولو أن العالم قد تسارع إلى تصديق مثل تلك الأمور الشديدة الاستغلاق وإنجاز مثل تلك الأفعال البالغة الصعوبة والمشقة وترجى مثل تلك الخيرات الفائقة السمو غير مندفع إلى ذلك بآيات معجزات بل تلبية فقط لدعوة قوم ساذجين أذلاء لكان ذلك أعجب من جميع الآيات المعجزات"(٢).

إن مثل هذا التصريح يجعل من رسائل بولس(٣)،

---

(١) مجموعة الردود، ص ٢٣.

(٢) السابق، ص ٢٣.

(٣) بولس: جاء في سفر أعمال الرسل تفصيل لحياة بولس من هذا أن اسمه الأصلي شاول، وأن مولده كان في طرطوس وذهب إلى أورشليم، وقد اختلف علماء النصارى في تحديد السنة التي ولد فيها، فمنهم من قال: إنه ولد في ٤ ميلادية، ومنهم من قال إنه ولد في عام ٥ أو ٦ ميلادية، بينما ذهب ول ديورانت إلى تحديد السنة الميلادية بأنها السنة العاشرة من التاريخ الميلادي.
يراجع في ذلك: أعمال الرسل الإصحاح ٢٢، ٣: ٧، قصة الحضارة، ج ١١ ص ٢٤٩، ترجمة: محمد بدران، ط: الإدارة الثقافية سنة ١٩٧٣م.

وبطرس(١)، وغيرهما واستجابة بعض الناس لهذه الرسائل والإيمان بدعوة هذين الرجلين أقوى وأفضل وأعجب من آيات عيسى ومعجزاته، وهذه مغالطة.

وأيا ما كان فإن توما قد أقام هذا الفصل ليقول بأن إيمان الناس بالمسيحية وما فيها من حقائق إيمانية فوق طاقة العقل ليس طيشًا وسفهًا وخفة، وإنما هو حكمة وفطنة؛ لأن هذه الحقائق الإيمانية قد نزلت بها الحكمة الإلهية.

والحقيقة الناصعة والحق البين أن إيمان أي إنسان بأن الله ثالوث وواحد، وتصديق أي عقل بهذا إنما هو السفه والطيش بعينه؛ لأن الحكمة الإلهية لا تنزل بالمتناقضات.

النتيجة المستخلصة من هذا الفصل:

على الرغم من أن النصوص النقلية والبراهين العقلية التي يؤمن بها توما لإثبات الحقيقة الإيمانية وهي أن الله واحد إلا أننا نجده متناقضًا مع نفسه حينما يقول أن الله ثلاثيًا واحدًا وأن هذا من الحقائق التي لا يستطيع العقل إدراكها.

---

(١) بطرس: اسم يوناني معناه صخرة أو حجر، وهو سمعان بطرس بن يونان أخو ادراوس من بيت صيدا الواقعة على بحيرة طبرية، وقد اختاره المسيح – عليه السلام – ضمن الاثنى عشر تلميذًا وكان قوي الحجة شجاعًا مدربًا على حمل السلاح، عند القبض على المسيح استل سيفه وضرب عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه، زج به في السجن وبعد أن أطلق سراحه سافر في بلاد كثيرة إلى أن حكم عليه بالصلب فصلب سنة ٦٥م.

يراجع في ذلك: قاموس الكتاب المقدس، د/ بطرس عبد الملك، حرف الباء، صدر عن مجمع الكنائس ١٩٧١م.

فالتثليث عند توما من الحقائق التي لا يستطيع العقل إدراكها أما الوحدانية وحدها فنقول له إن العقل يستطيع إدراكها بدليل إثبات علماء الكلام(١) لها

---

(١) ينظر: أصول أهل السنة والجماعة، المسماة برسالة أهل الثغر للإمام أبي الحسن الأشعري، ص ٤١، ٤٢، تحقيق: د/ محمد السيد الجليند، مطبعة التقدم، ١٩٨٧م، الإنصاف للإمام الباقلاني، ص ٣٤، تحقيق: محمد زاهد الكوثري، ط٢، ١٩٦٣م، مؤسسة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١٩٨٧م، كتاب أصول الدين للإمام أبي منصور عبد القاهر بن طاهر التميمي البغدادي، ص ٨٥، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، بيروت – لبنان، ط: الأولى ١٩٨١م، العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية، تأليف: الإمام الجليل إمام الحرمين أبي المعالي عبدالملك بن عبدالله بن يوسف الجويني، ص ٤٠، ٤٢، تحقيق: د/ أحمد حجازي السقا، الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، مطبعة دار الشباب بالعباسية لمع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة والجماعة للجويني، ص ٨٦، تقديم وتحقيق: د/ فوقية حسين محمود، مراجعة: د/ محمود الخضري، ط: الأولى ١٣٨٥هـ ١٩٦٥م، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والإنباء والنشر، الدار المصرية للتأليف والترجمة، الاقتصاد في الاعتقاد، تأليف، حجة الإسلام، محمد أبي حامد الغزالي الطوسي، ص ٣٩، ٤٠، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط: الأخيرة، بدون، نهاية الإقدام في علم الكلام، تأليف: أبي الفتح محمد بن عبد الكريم ابن أحمد الشهرستاني، ص ٩٠: ١٠٢، حرره وصححه: الفرجيوم، بدون، محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين للإمام فخر الدين محمد بن عمر الخطيب الرازي، ص ٢٧٩، ٢٨٠، مراجعة وتقديم: طه عبدالرؤوف سعد، ط: الأولى ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م، الناشر: دار الكتاب العربي، شرح العقائد النسفية للعلامة سعد الدين التفتازاني، ص ٢٩، تحقيق: د/ أحمد حجازي السقا، ط: الأولى ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م، الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية – القاهرة، شرح المواقف في علم الكلام للسيد الشريف علي بن محمد الجرجاني، الموقف =

بالأدلة العقلية التي لا تدع مجالًا للشك وغيرها من الأدلة الأخرى منها على سبيل المثال لا الحصر ما جاء على لسان الأشعري حيث قال: (نبه تعالى خلقه على أنه واحد باتساق أفعاله وترتيبها، وأنه تعالى لا شريك له فيها بقوله: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[1]، ووجه الفساد بذلك لو كان إلهين ما اتسق أمرهما على نظام ولا يتم على أحكام وكان لا بد أن يلحقهما العجز أو يلحق أحدهما عند التمانع في الأفعال والقدرة على ذلك، وذلك أن كل واحد منهما لا يخلو أن يكون قادرًا على ما يقدر عليه الآخر على طريق البدل من فعل الآخر أو لا يكون كل واحد منهما قادر على ذلك، فإن كان كل واحد منهما قادرًا على فعل ما يقدر عليه الآخر بدلاً منه، لم يصلح أن يفعل كل واحد منهما ما يقدر عليه الآخر إلا بترك الآخر له، وإذا كان كل واحد منهما لا يفعل إلا بترك الآخر له جاز أن يمنع كل واحد منهما صاحبه من ذلك، ومن يجوز أن يمنع ولا يفعل إلا بترك غيره له فهو مزموم عاجزًا، وإن كان كل واحد منهما لا يقدر عل فعل مقدور الآخر بدلًا منه وجب عجزهما وحدوث قدرتهما، والعاجز لا يكون إلها ولا ربًا) [2].

= الخامس في الإلهيات، ص ٦٨، ٦٩، تحقيق: د/ أحمد المهدي، الناشر: مكتبة الأزهر – القاهرة، كتاب شرح الأصول الخمس للقاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني، ص ٢٧٧: ٢٩٧، تعليق: أحمد بن الحسين بن هاشم، حققه وقدم له: د/ عبد الكريم عثمان، ط: الأولى ١٣٨٤هـ ١٩٦٥م، الناشر: مكتبة وهبة بالقاهرة.

(١) سورة الأنبياء آية رقم ٢٢.

(٢) أصول أهل السنة والجماعة للأشعري، ص ٤١، ٤٢.

ويقول إمام الحرمين الجويني أيضًا: (صانع العالم واحد عند أهل الحق، والواحد الحقيقي هو الشيء الذي لا ينقسم والدليل على وحدانية الإله: أنا لو قدرنا إليهن اثنين وفرضنا عرضين ضدين، وقدرنا إرادة أحدهما لأحد الضدين، وإرادة الثاني للثاني، فلا يخول من أمور ثلاث، إما أن تنفذ إرادتهما أو لا تنفذ إرادة أحدهما أو تنفذ إرادة أحدهما دون الآخر، واستحال أن تنفذ إرادتهما، لاستحالة اجتماع الضدين، واستحال أيضًا ألا تنفذ إرادتهما، لتمانع الإلهين وخلو المحل عن كلا الضدين، فإن بطل القسمان تعين الثالث، وهو أن تنفذ إرادة أحدهما دون الآخر، فالذي لا تنفذ إرادته فهو المغلوب المقهور المستكره، والذي نفذت إرادته فهو الإله القادر عل تحصيل ما يشاء[1]، كما أن ما كان واضحًا كان أولى باليقين مما ليس بواضح، وما أمكن إثباته بالبراهين العقلية أولى باليقين مما لم يمكن إثباته بهذه البراهين.

أيضًا الوحدانية تقررها وتثبتها وتؤكدها النصوص الدينية والتثليث لم يثبت بالنصوص الدينية وما ثبت بالوحي أولى بالقبول واليقين مما لم يثبت بوحي ديني.

(١) لمع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة والجماعة للجويني، ص ٨٦، دراسات في علم الكلام والعقيدة، د/ جميل محمد أبو العلا، ص ٦٥، ٦٦، ط: الأولى سنة ١٩٨٤م، مطبعة قاصد خير – القاهرة.

الفصل الخامس

في أن حقيقة الإيمان المسيحي لا تضادها حقيقة العقل[١]

ومعنى ذلك أن العقل لا يضاد الإيمان المسيحي.

يعترف توما الأكويني بأن حقيقة الإيمان المسيحي وهي أن الله ثلاثي وواحد هي فوق طاقة العقل الإنساني ومع هذا يرى توما أن الحقائق المغروسة في فطرة العقل الإنساني لا يمكن أن تكون مضادة لحقيقة هذا الإيمان المسيحي.

وقد جاء توما بعدة أدلة عقلية ليثبت بها أنه لا منافاة ولا مضادة بين ما فطر الله عليه العقل الإنساني وتلك الحقيقة الإيمانية التي لا يستطيع العقل إدراكها والتي هي أن الله ثلاثي وواحد.

الدليل الأول: أن الله – ﷻ – قد فطر الإنسان على بعض المبادئ الأولية أي غرس في عقل الإنسان بعض المبادئ الأولية وهي مبادئ بسيطة طبع الله النفس الإنسانية عليها وتسمى هذه المبادئ في عرف الفلاسفة وعلماء العقائد بالأوليات وهي من الوضوح بحيث لا تحتاج إلى بحث أو فكر أو دليل لإثباتها بل يسلم بها أي إنسان يسمعها أو يقرؤها.

هذه المبادئ عند توما قد بلغت في الصدق واليقين والثبات درجة عالية بحيث لا يمكن لأحد أن يتصور أنها كاذبة أو باطلة، كما أن الحقائق الإيمانية التي يعتقدها توما قد بلغت هي الأخرى درجة عالية من الصدق واليقين بحيث لا يمكن الشك فيها أو تكذيبها أو تصور بطلانها[٢]؛ لأن الله أكد صدقها بآيات

---

(١) مجموعة الردود، ص ٢٣.

(٢) السابق، ص ٢٣، ٢٤.

واضحات، وهي المعجزات التي ظهرت على يد عيسى – عليه السلام – رآها الجميع وشاهدها المؤمن والكافر.

ولما كان الباطل مضادًا للحق، ولا يوجد باطل في المبادئ الأولية كما لا يوجد باطل في الحقائق الإيمانية كان هناك توافق وترابط بين هذه المبادئ الأولية وتلك الحقائق الإيمانية مما يستحيل معه وجود تضاد بين هذه المبادئ الأولية وتلك الحقائق التي يعلمها الإيمان المسيحي[1].

هذا هو الدليل الأول الذي أقامه توما على عدم وجود تضاد بين الحقائق الإيمانية المسيحية والمبادئ الأولية لأن كليهما من الله، والأولى – وهي الحقائق الإيمانية – مؤيدة بالمعجزات والثانية وهي المبادء الأولية فطرة من الله في النفس الإنسانية.

ولنا وقفة تأييد مع توما في هذا الدليل إلا أنه إذا كنا نوافقه في أن الله غرس في النفس الإنسانية بعض المبادئ الأولية وهي حق وصدق ويقين لا شك في هذا إلا أننا لا نوافقه في المواءمة والتوافق الذي افترضه بين هذه المبادئ الأولية والحقائق الإيمانية المسيحية التي قال بها توما وذلك لعدة أمور:

الأمر الأول: أن المبادئ الأولية بسيطة وواضحة ولا تحتاج إلى فكر أو بحث أو استدلال لإثباتها – وهذا هو ما قرره توما سابقًا، أما الحقائق الإيمانية المسيحية فهي ليست كذلك؛ لأنها في أغلبها معقدة وغامضة وتحتاج إلى أدلة لإثباتها سواء أكانت هذه الأدلة من العقل أم من الوحي الإلهي، وتوما نفسه شهد بهذا حين قال: " فإن بعض ما هو حق في الله يفوق طوق كل إدراك عقلي بشري لكون الله ثلاثيًا وواحدًا وبعضه ما يستطيع

(١) مجموعة الردود، ص ٢٣: ٢٥.

العقل الطبيعي نفسه التوصل إلى إدراكه ككون الله موجودًا وأنه واحد وماشاكل ذلك مما أثبته الفلاسفة أيضًا بالقياس البرهاني مسترشدين إليه بنور العقل"[١].

الأمر الثاني: **أن المبادئ الأولية يدركها كل إنسان سواء كان متعلما أو مثقفًا أو فيلسوفًا أو من العامة؛ لأنها مطبوعة في عقل الإنسان ونفسه، أما الحقائق الإيمانية فمنها ما لا يمكن للبشر إدراكه أبدًا، ومنها ما لا يدركه إلا الفلاسفة أما بقية الناس وهم أصحاب العقول الطبيعية فهؤلاء لا نصيب لهم في شيء من هذه إلا من أدركته الرحمة الإلهية بوحي من السماء فيدرك بعضًا من هذه الحقائق الإلهية مما هو متاح لأصحاب العقول الطبيعية.**

الأمر الثالث: **أن الحقائق الإيمانية ليست مسلمة من كل الناس بدليل وجود الكفار منذ مجيء عيسى حتى يومنا هذا، ولن تخلو الحياة من وجود من يرى أن حقائق الإيمان المسيحي تناقض العقل وتضاده كدعوى أن عيسى ابن الله في حين أنه كان يصف نفسه بأنه ابن الإنسان كما جاء في بعض الأناجيل. حيث نجد في إنجيل متى: (فإني الحق أقول لكم لا تكملون مدن إسرائيل حتى يأتي ابن الإنسان)[٢].**

ويقول في موضع آخر: (وحينئذ تظهر علامة ابن الإنسان)[٣].

بل إن المبادئ الأولية تؤكد أن من الحقائق الإيمانية في المسيحية حقائق تناقض العقل وتضاده فالواحد لا يمكن أن يكون ثلاثة، والثلاثة لا

---

(١) مجموعة الردود لتوما الأكويني، ص ٨، ٩.
(٢) إنجيل متى الإصحاح ١٠، ٢٣.
(٣) السابق الإصحاح ٢٤، ٣٠.

يمكن أن تكون واحدا لا في الواقع ولا في الخيال.

ولو طبقنا ما يقوله المحقق تعريفًا للحق والباطل[1] لثبت أن الحقيقة الإيمانية المسيحية التي تقول إن الله ثلاثي وواحد ليست حقًا وذلك لأنه إذا كان الحق هو مطابقة ما في العقل للواقع – كما قال المحقق – فإن كون الله ثلاثيًا وواحدًا وكون هذا عقيدة يؤمن بها توما ليست مطابقة للواقع في شيء ومن لا يعترف بهذا – أي بعدم المطابقة – فليثبت هذه المطابقة ولن يتأتى له هذا.

من هنا ولهذه الأمور الثلاثة فالمطابقة بين المبادئ الأولية والحقائق الإيمانية في عدم تناقضهما مع العقل أمر غير مسلم إذ أن الحق الذي يقبله العقل وتؤيده المشاهد الواقعية أن المبادئ الأولية لا تضاد العقل. أما حقائق الإيمان المسيحي التي قال بها توما فمنها ما يضاد العقل ويناقضه، بل المنطق السليم وأصول الديانات الإلهية السابقة على حقائق الإيمان المسيحي واللاحقة لها تقول بمناقضة هذه الحقائق للعقل، لأنه جاء في التوارة في سفر الخروج الإصحاح العشرون: "أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية لا يكن لك آلهة أخرى أمامي، لا تصنع لك تمثالًا منحوتًا، ولا صورة مًا ممًا في السماء، من فوق وما في الأرض من تحت وما في المياه من تحت الأرض، لا تسجد لهن ولا تعبدهن لأني أنا الرب إلهك إله غيور"[2].

وجاء في سفر أشعيا: "أنا الأول وأنا الآخر ولا إله غيري ... أنا الرب

(١) هامش مجموعة الردود لتوما الأكويني، ص ٢٤، ٢٥.

(٢) سفر الخروج – الإصحاح العشرون ٢٠، ٢، ٣، ٤.

صانع الكل، ناشر السموات وحدي وباسط الأرض من معي"[1].

الدليل الثاني: الذي أقامه توما لإثبات أنه لا تناقض بين الحقائق الإيمانية المسيحية وما يكون في العقل من حقائق ومبادئ أولية فهو يقوم على التلازم الواجب بين ما يُعَلِّمُهُ الله للناس من حقائق إيمانية مسيحية وما يُعَلِّمُهُ المُعَلِّمُ لطلابه – هكذا قال توما –، فالمعلم يلقن التلميذ أو المتعلم[2] ما في نفسه أو ما عنده من علم ولما كان المعلم لا يعلم إلا الحق – حيث هذا هو الوضع الطبيعي – ولأنه من القبيح أن يعلم الباطل، كانت المبادئ الأولى التي طبع الله الإنسان عليها حق وصدق ولما كان الله هو الصانع لطبيعتنا فحكمة الله إذن تتضمن هذه المبادئ أيضًا.

وبناءً على هذه القاعدة التي قعدها توما فأي حقيقة أو حكم أو قانون جاء مضاد لتلك المبادئ الأولية هو مضاد لحكمة الله لذلك يستحيل أن يكون هذا الشيء المضاد من عند الله، فإذا كان ذلك كذلك كانت كل الحقائق الإيمانية التي جاءت كلها وحيا من الله غير مضادة للمعرفة الطبيعية بل يستحيل هذا.

هذا هو الدليل الثاني الذي أقامه توما ليثبت أن الحقائق الإيمانية المسيحية لا تتناقض مع العقل.

والمتفحص لهذا الدليل والمدقق فيه يجد أن توما قد أكسب المبادئ الأولية الصحة والصدق واليقين بناء على أن المعلم لا يعلم إلا الحق وأنه من القبيح أن يعلم الباطل، أيضًا قد جعل توما الحكمة الإلهية متضمنة للمبادئ

---

(١) سفر أشعياء الإصحاح الرابع والأربعون ٦، ٢٤.

(٢) مجموعة الردود، ص ٢٥.

الأوليـة بسبب أن الله صـانع لطبيعتنـا، وهذا يعنـي أن أفعال الله معللـة بعلل خارج نطاق الإرادة الإلهية وخاضعة للأفعال البشرية وهذا خطأ لا يجوز في حق الله – ﷻ –.

وعلى كلٍّ الذي أراه أن هذا الدليل ملئ بالمغالطات والتي منها:

أولاً: **جميع الأديان الإلهية مجمعة على أن الله هو المثل الأعلى وليس العبد المخلوق هو المثل الأعلى حتى تقاس عليه أحكام الله والحقائق الإيمانية الإلهية، فالصحيح أن نقول يجب على العبد المؤمن أن يلتزم العدل، ولا يصح أن نقول؛ لأن الملك الفلاني أو الوزير الفلاني يقيم العدل لذلك فالله يقيم العدل، والصحيح أن نقول إن الله حرم الظلم على نفسه، إذن فهو محرم علينا، ولا يصح أن نقول لأن الإنسان حرم الظلم على نفسه قاس تعليم الله وتعاليمه على تعليم المعلم وتعاليمه، وقوَّم هذه التعاليم بالنظر إلى ما يعلمه المعلم لتلميذه فهذه مغالطة حتى وإن وجد حسن النية.**

ثانيًا: **ربط توما الحقائق الإيمانية التي يعلمها الله للناس بالحقائق التي يعلمها الأستاذ لتلميذه، وهذا خطأ؛ لأن التلازم يكون من الصغير للكبير، ومن الأدنى للأعلى فنقول إن هذا الابن مؤدب لأن إباه مؤدب، ولا نقول إن هذا الأب مؤدب؛ لأن ابنه مؤدب، وما قاله توما هو من هذا النوع غير الصحيح كأنه قال: إن الله لا يُعَلِّمُ إلا الحق لأن المعلم إنما يعلم طلابه الحق، أو أن الله يُعَلِّمُ الحق لأن المعلم إنما يعلم تلميذه الحق فيستقي الحكم على الحقائق الإيمانية الإلهية من الحكم على الحقائق البشرية، وهذا باطل لأنه لا يصح أن نقول إن عيسى علم الناس الحق؛ لأن بطرس علم الناس الحق أو أن نقول لأن بطرس دعى الناس إلى الحق فإن عيسى دعى الناس إلى الحق.**

وقد جعل توما وجود المبادئ الأولية في الإنسان؛ هو أن الله هو الذي صنع الإنسان ثم قال: (إذن فحكمة الله تتضمن هذه المبادئ)[1]، أي الحكمة الإلهية اقتضت وجود المبادئ الأولية في الإنسان، إذن المبادئ الأولية هي نتاج الحكمة الإلهية وما كان كذلك لا يكون إلا حقًا وفي هذا مغالطتان:

الأولى: أنه جعل وجود المبادئ الأولية التي هي من الحكمة الإلهية تابعة لوجود الإنسان، أي أنه لولا وجود الإنسان لما وجدت المبادئ الأولية وبالتالي لم توجد الحكمة الإلهية فجعل توما الإله الحق تابعا لا متبوعًا.

والأصح أن يقول: حكمة الله اقتضت المبادئ الأولية؛ لأنه هو الذي غرسها في نفس الإنسان الذي هو من صنع الله.

وقد رتب توما على هذه القاعدة: (أنه إذا جاء ما هو مضاد للمبادئ الأولية فإنه يكون مضادًا لحكمة الله لذلك لا يكون من عند الله، وبالتالي فكل ما جاء عن طريق الوحي يستحيل أن يكون مضادًا للمعرفة الطبيعية)[2].

الثانية: اقتضاء صنع الله للإنسان وجود المبادئ الأولية يلزم عليه أن يكون جميع الناس عندهم هذه المبادئ الأولية؛ لأن الناس كلهم من صنع الله والحق أن الواقع يقول بغير هذا. فوجود الكفر من الكافر ينفي وجود المبادئ الأولية عنده؛ لأنها لو كانت موجودة لما وقع منه الكفر ووجود الكذب من الكذاب يقول بعدم وجود المبادئ الأولية عند هذا الكذاب وهكذا بقية الرذائل الموجودة في مجتمع من المجتمعات فإنها تنفي وجود المبادئ الأولية في هذا المجتمع الموبوء بالرذائل. أو أن هذه المبادئ الأولية موجودة

---

(١) مجموعة الردود، ص ٢٥.

(٢) السابق، ص ٢٥.

عند أصحاب هذه الرذائل إلا أنهم لا يفعلونها أو لا يستفيدون منها وبالتالي يكون هذا الفريق من الناس قد عطل الحكمة الإلهية ومنعها من عملها وهذا لا يصح في جانب الله – ﷻ –.

ولو كان هناك ترابط وتلازم وتتابع وجود بين المبادئ الأولية في الإنسان والمبادئ الأولية في الحكمة الإلهية ما كان هناك داع لإرسال الرسل والأنبياء لتصحيح المفاهيم والحقائق عند الناس.

الدليل الثالث: **الذي أقامه توما لإثبات أنه لا تناقض بين الحقائق الإيمانية المسيحية وما يكون في العقل من حقائق ومبادئ أولية أن عقل الإنسان يتأثر بالأدلة المضادة لدرجة أنه يصعب عليه وهو في هذه الحالة أن يعرف الحق، وبناء على هذا (لو أن الله ألقى إلى الناس أو أنزل عليهم معارف مضادة للحق لظهر أثر هذا على العقل في صورة تمنعه عن معرفة الحق أو عدم اهتدائه إلى معرفة الحق وهذا أمر يستحيل من الله)[1].**

هكذا قال توما، وللأسف هذا كلام غير صحيح فالكافرون بالله والملحدون في الله والمعاندون لله موجودون منذ آدم إلى أن تقوم القيامة، وهذه حقيقة لا ينكرها توما مما يعني أنه غير مستحيل امتناع بعض الناس عن معرفة الحق أوعدم اهتدائهم إلى الحق.

وللمحقق توضيح لهذا الدليل نختصره فيما يلي:

البينات المضادة تمنع العقل أي من الوصول إلى المعرفة الصحيحة؛ لأنها تؤدي إلى معارف مضادة فكذلك حكمة الله إذا ولدت فينا معارف مضادة تمنع

---

(١) مجموعة الردود، ص ٢٦.

عقلنا عن معرفة الله وهذا لا يمكن أن يقال على الله الذي هو الحق"[١].

إذًا ماذا نقول ؟ أنقول يستحيل على الحكمة الإلهية أن تولد فينا معارف مضادة ؟ أو نقول يستحيل على الحكمة الإلهية أن تمنع عقولنا عن معرفته ؟ ولو قلنا هذا فمن الذي ولَّد فينا المعارف المضادة أي غير الصحيحة.

والواضح أن هذا الذي يقوله المحقق ومن قبله توما الأكويني هو منهج "المشبهة"[٢] الذي يشبهون الله بالبشر ويصفونه بصفات الحوادث ويجوزون على الله أن يقع منه ما يقع من البشر.

الدليل الرابع: وهو مؤلف مما قاله توما ومما قاله المحقق وهو أننا أمام معرفتين، معرفة منزلة وهي التي تأتينا عن طريق الوحي ومعرفة طبيعية وهي المعرفة التي جاءت عن طريق المبادئ الطبيعية وهما موجودتان معًا في العقل فلا تضاد بينهما؛ لأن الضدين لا يجتمعان في شيء واحد، ولو قلنا أن إحداهما غير موجودة لكان هذا أيضًا أمرًا مستحيلاً؛ لأن المعرفة الطبيعية نشأت عن المبادئ الطبيعية لذلك فإنها لا تزول مع بقاء الطبيعة على حالتها، وبالتالي لا بد من وجود هاتين المعرفتين؛ لأن المعرفة الإيمانية جاءت عن طريق الوحي والطبيعية من المبادئ الطبيعية.

---

(١) مجموعة الردود المحقق هامش أ من ص ٢٦.

(٢) المشبهة: هم قوم شبهوا الله تعالى بالمخلوقات ومثلوه بالمحدثات، وأجازو على الله – ﷻ – الملامسة والمصافحة والمزاورة، يراجع في ذلك: كتاب التعريفات، تأليف: الشريف علي بن محمد الجرجاني، ص ٢١٦، باب: الميم، ط: الثالثة ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان، المعجم الفلسفي، تأليف: مراد وهبة، ص ٦٧٤، باب: الميم، مكتبة الأسرة ٢٠١٦م، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

وعلى هذا تكون المحصلة الواضحة "أن كل ما يؤتي به من البراهين نقضًا لتعاليم الإيمان لا ينتج نتاجًا صحيحًا عن المبادئ الأولية المغروسة في الطبيعة أي الطبيعة الإنسانية والمعلومة بذاتها[1].

والمحصلة التي يحاول توما جاهدًا إثبات أنها حق وصدق وأنها مؤيدة بالمبادئ الأولية التي غرسها الله في طبيعتنا والمتضمنة في الحكمة الإلهية هي أن الله ثالوثًا وواحدًا والتي نرى أنها من المستحيلات فيستحيل أن تكون من المبادئ الأولى كما يستحيل أن تكون مغروسة في نفوسنا، كما يستحيل أن يكون لها حقيقة أو وجود في الحكمة الإلهية؛ لأن الصحيح أن هناك تناقضًا بين الحكمة الإلهية وبين الحقيقة الإيمانية التي تقول: "إن الله ثالوثًا وواحدًا".

(١) مجموعة الردود، ص ٢٧.

الفصل السادس
في أنه كيف تكون حال العقل الإنساني
بالنظر إلى حقيقة الإيمان الأولى[١]

كيف يدرك العقل الحقائق الإيمانية ؟

عرفنا سابقًا من حديث توما عن الحقائق الإيمانية التي يجب على الإنسان معرفتها حقان، حق فوق طاقة العقل الإنساني والطبيعة الإنسانية وحق في متناول العقل الإنساني والطبيعة الإنسانية.

هذا الحق الإيماني الثاني الذي يكون في متناول العقل إنما يصل إليه العقل عن طريق الأشياء المحسوسة باعتبار أنها من آثار الله ومن خلقه إلا أن هذا المنهج العقلي أو الوصول إلى المعرفة عن طريق المحسوسات فيه نقص لأنه لا يستطيع إبانة معرفة جوهر الله[٢]، وكما قال توما سابقًا لأن الله ليس محسوسًا لذلك لا يمكن معرفته معرفة ذاتية أي معرفة حقيقته وجوهره.

وهذا الذي يقوله توما حق وصدق لا يجادله فيه أحد لأن الله ﴿ لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ ﴾[٣]؛ ولأن الله عرفنا بنفسه عن طريق المخلوقات التي خلقها وذلك في أكثر من آية نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر قوله تعالى: ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ المَلِكُ القُدُّوسُ السَّلامُ المُؤْمِنُ المُهَيْمِنُ العَزِيزُ الجَبَّارُ المُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ *

---

(١) مجموعة الردود، ص ٢٧.

(٢) السابق، ص ٢٧.

(٣) سورة الأنعام آية رقم ١٠٣.

هُوَ اللَّهُ الخَالِقُ البَارِئُ المُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾[(١)].

نعم إن المعرفة التي تصل عن طريق المحسوسات فيها نقص، **ويعلل توما هذا النقص (بأن المعلولات تحمل في نفسها بحسب حالتها شبه عللها لما أن الفاعل إنما يفعل شبيها له لكن مع هذه فالمعلولات أي الآثار التي خلقها الله لا تبلغ دائما إلى تمثيل فاعلها تمثيلا كاملاً[(٢)].**

والمعنى الذي يريد توما أن يؤكده هنا **أن العقل في المعرفة الطبيعية يصل إلى ما يصل إليه من معارف عن طريق الحس، إلا أن هذه المعرفة تكون ناقصة؛ لأن هذه المعلولات أو هذه المحسوسات أو هذه الآثار الإلهية لا تمثل أي لا تعطي صورة تامة عن فاعلها وهو الله – ﷻ – تمثيلاً كاملاً لذلك كانت المعارف الحسية ومنهج المعرفة الحسي قاصر عن إدراك ذات الله وجوهره.**

وأقول: **إنه مع اتفاقي مع توما في أن المعرفة الحسية قاصرة عن إدراك ذات الله وجوهره إلا أني لست معه في أن كل فاعل إنما يفعل شبيهًا له؛ لأن هذا يؤدي لأن يكون لله شبيهًا في خلقه وهذا باطل نصًا وعقلاً، فأما نصًا فلقول القرآن الكريم عن الله ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾[(٣)]، وأما عقلاً فقد استدل علماء الكلام بأدلة عقلية كثيرة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما ذكره الباقلاني حيث قال: (فيجب أن يعلم أنه لا يجوز أن يكون مشبهًا للعالم**

---

(١) سورة الحشر الآيات: ٢٢، ٢٣، ٢٤.

(٢) مجموعة الردود، ص ٢٧.

(٣) سورة الشورى آية ١١.

المصنوع المحدث؛ لأنه لو جاز ذلك لم يخل: إما أن يشبهه في الجنس، أو في الصورة، ولا يجوز أن يكون مشبهًا له في الجنس؛ لأنه لو أشبهه في الجنس لجاز أن يكون محدثًا كالعالم المحدث، أو يكون العالم قديمًا كهو، لأن حقيقة المشتبهين المتجانسين ما سد أحدهما مسد الآخر وناب منابه وجازعليه ما يجوز عليه)[1].

هكذا تكون معنى مخالفته تعالى للحوادث فهو -ﷻ- (لا يشبه شيئًا من الحوادث ولا يشبهه شيء منها فالله تعالى لا يشبهه شيء من المعدومات، ولا من الموجودات الحادثة سواء أكانت موجودة خارجًا أم ذهنًا) [2].

وأما ما جاء في السنة من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: (إذا قاتل أحدكم أخاه فليتجنب الوجه، فإن الله خلق آدم على صورته) [3]. فليس المراد منه أن الله خلق آدم شبيهًا بالله - ﷻ -، وإنما المراد منه (هو أنه خلقه حين خلقه على الصورة التي كان عليها في الدنيا، لم ينقله إلى الأصلاب والأرحام على اختلاف الأحوال من نطفة إلى علقة

---

(١) الإنصاف للباقلاني، ص ٣٢.

(٢) دراسات في علم الكلام والعقيدة، د/ جميل محمد أبو العلا، ص ٤٩.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب: الاستئذان، باب: بدء السلام، ح ٦٢٢٧، ٥٠١٨، ط: دار طوق النجاة، ط: الأولى سنة ١٤٢٢هـ، وأخرجه مسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: النهي عن ضرب الوجه، ح ٢٦١٢، ٢٠١٧/٤، ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان، وأخرجه أحمد في المسند، ح ٧٤٢٠، ٣٨٢/٢، ط: مؤسسة الرسالة، ط: الأولى سنة ٢٠٠١م.

ومضغة وجنين كما فعل ذلك بنسله ...، فذلك معنى قوله خلقه على صورته والكناية راجعة إلى آدم – عليه السلام –) [1].

ويقول الفخر الرازي عقب هذا الحديث: (اعلم أن العلماء ذكروا في تأويل هذه الأخبار وجوهًا:

الأول: قوله أن الله خلق آدم على صورة الضمير عائد على المضروب يعني خلق الله – تعالى – على صورة المضروب فوجب الاحتراز من تقبيح ذلك المضروب ...

الثاني: أن المراد أن الله خلق آدم على صورته التي كان في آخر أمره، يعني أنه ما تولد عن نطفة ودم، وما كان طينًا ورضيعًا بل خلقه الله رجلًا كاملًا دفعة واحدة.

الثالث: أن المراد من الصورة الصفة. يقال: صورة هذا الأمر كذا، أي صفته، فقوله خلق الله آدم على صورة الرحمن أي خلقه على صفته في كونه خليفة له في أرضه) [2].

---

(١) كتاب أصول الدين للبغدادي، ص ٧٦.

(٢) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب للإمام فخر الدين الرازي، ج ١ ص ١٠٨، ط: الأولى سنة ٢٠٠٠م، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان.

الفصل السابع

في ترتيب هذا المؤّلف والأسلوب الذي نجري عليه في وضعه[1]

بنهاية الفصل السابق يكون توما قد انتهى من فاتحة كتابه مجموعة الردود على الخوارج (فلاسفة المسلمين) وهي التي اصطلح العلماء على تسميتها مقدمات لهذا العلم أو ذاك العلم.

ومجمل المقدمات التي فصلها توما وجعلها فاتحة للكتاب السابق ذكره هي: أن معرفتنا بالحقائق الإيمانية الإلهية نوعان:

النوع الأول: **وفيه تكون معرفة الحقائق الإيمانية فوق طاقة البشر لذلك فالطريق الصحيح للوصول إلى معرفة هذه الحقائق إنما هو الوحي الإلهي.**

النوع الثاني: **وفيه تكون معرفة الحقائق الإيمانية في متناول العقل الطبيعي حيث يمكن الوصول إلى هذه المعرفة عن طريق البحث والنظر[2] العقلي في آثار الله ومخلوقاته المحسوسة ولكن هذه المعرفة تختلف في قوتها ومقدارها باختلاف العارفين علما وثقافة وفكرًا. ولا بد في هذه المعرفة من الإلهام الإلهي، وبخاصة أن البحث العقلي والنظري إنما يتعلق بالمحسوسات ولذلك كانت هذه المعارف ناقصة وكمالها إنما يكون بهذا الإلهام الإلهي.**

والمعرفة الطبيعية وهي التي يكون مصدرها العقل الطبيعي لا تتناقض مع المعرفة الإيمانية، وكذلك العكس، ولما كان الأمر هكذا كان من المناسب أن يعرض الله - ﷻ - على الناس تلك الحقائق الإيمانية التي ليس للعقل

---

(١) مجموعة الردود، ص ٢٩.

(٢) السابق، ص ٣٠.

قدرة على اكتسابها كي يؤمنون بها ويعتقدونها.

وقد قرر توما في فاتحة الكتاب هذه أن إذعان العقل للحقائق الإيمانية التي هي فوق طاقة الإنسان وتوافقه معها وقبوله بها أمر مؤكد ومحمود ويعتبر عملا حسنا وليس طيشًا أو عملا فاسد.

ثم وضع توما في هذه الفاتحة كيفية اكتساب العقل للمعرفة أو كيف يحصل هذا العقل على المعرفة العقلية مبينا مكانة هذه المعرفة العقلية مقارنة بالمعرفة الإيمانية التي مصدرها الوحي الإلهي.

ثم انتقل توما من الحديث عن الأحكام العامة إلى الحديث عن الأحكام الخاصة التي هي هنا حقائق الإيمان المسيحي فرأى أنها لا تتناقض مع حقيقة العقل أو ما يصل إليه العقل الطبيعي من معارف وحقائق، وأكد هذا بإثبات وجود الله بهذا العقل الطبيعي.

الفصل الثامن

في رأي القائلين بأن كون الله موجوداً

لا يمكن إقامة البرهان عليه لأنه بيّن بذاته[1]

عرفنا في فاتحة كتاب توما "مجموعة الردود" أن وجود الله من الحقائق الإلهية التي يمكن اكتسابها عن طريق العقل الطبيعي المؤيد بنور العقل أو ما سماه بالإلهام الإلهي.

وقبل أن يدخل توما في هذا الإثبات وهو إثبات وجود الله تحدث عن رأي العلماء حول السؤال الذي يقول: هل يمكن إثبات وجود الله بالأدلة العقلية ؟ وبمعنى آخر: هل الإنسان الطبيعي في حاجة إلى إثبات وجود الله بالأدلة العقلية ؟

وكان جواب توما أنه بعض الباحثين أو المتحدثين في هذا الموضوع يرون أن وجود الله بيِّن بيانا شافيا بحيث لا يحتاج هذا الوجود الإلهي إلى زيادة بيان وبحيث لا يمكن لمتصور أن يتصور ضده[2].

يقول الدكتور/ عبد الحليم محمود: (أن كل الأديان نبذت هؤلاء الذين لم يعتقدوا بوجود الإله وأنكرت وشنعت على هؤلاء الذين لم يؤمنوا به)[3].

وبناء على ما يقوله الباحثون لا يمكن إقامة البراهين على وجود الله؛ لأن

(١) مجموعة الردود، ص ٣٢.

(٢) السابق، ص ٣٢.

(٣) فلسفة ابن طفيل ورسالة حي بن يقظان، ص ٣٥، تأليف وتحقيق: د/ عبد الحليم محمود، دار الكتاب اللبناني – بيروت – لبنان – مكتبة المدرسة – بيروت – لبنان ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.

هذا لا يأتي بجديد، إذ هو تحصيل حاصل، وتحصيل الحاصل عبث لا طائل من ورائه، وهنا قام توما بالرد على من يقول بذلك ومناقشته فيما يقول.

مناقشة توما للقائلين بأن وجود الله لا يحتاج إلى دليل:

لقد رأى توما أن الرأي الذي يقول بأن وجود الله بينٌ لا يحتاج إلى دليل لإثباته رأى باطل وغير صحيح لذلك قام بالرد على هذا الرأي مبينًا كيفية هذا البطلان وأسباب قول هذا الفريق بتلك المقولة، فقال إن أسباب هذا التوجه أي القول بهذا الرأي هو:

السبب الأول: **لنفترض سؤالا مفاده: ما هي القضايا التي يقول الناس عنها إنها بينة بذاتها؟**

ويجيب توما بأنها القضايا التي إذا عرفنا أطرافًها عرفنا هذه القضية في الحال، وضرب مثالاً على هذا بمصطلح "الكل" ومصطلح "الجزء" فمجرد معرفتنا بالكل سنعرف الجزء وبمجرد معرفة الجزء سنعرف الكل، وإذا عرفنا هذا وذلك عرفنا في الحال أن الكل أعظم من الجزء وحينئذ لا تحتاج هذه القضية إلى إثباتها بدليل أو برهان، بل لا يمكن لأحد أن ينكر هذه القضية أو يشكك فيها أو ينكر وضوحها.

هذه هي القضية البينة الواضحة بذاتها، وقد رأى هذا الفريق الذي يزعم أن وجود الله بين بيانًا شافيا وأن الوجود الإلهي من هذه القضايا البينة بذاتها فلا ينكره أحد ولا يشكك فيه أحد، لماذا ؟

لأننا إذا سمعنا هذا الاسم الكريم "الله" فهمنا منه أنه شيئًا لا يمكن أن يتصور أعظم منه[1]، بل كل من يسمع هذا الاسم لا يفهم منه إلا أنه أعظم

---

(١) مجموعة الردود على الخوارج فلاسفة المسلمين، ص ٣٣.

شيء في الوجود، ولا يتعقل أحد حين سماعه لهذا الاسم إلا تصورًا واحدًا وهو أنه "ليس هناك من هو أعظم من الله، ولهذا الوضوح والبيان" صار من الواجب أن يكون الله متحقق الوجود ولو في الذهن على أقل الوجوه[1].

ولما كان وجود شيء من الأشياء في العقل وفي الواقع الخارجي هو أعظم من وجوده في العقل فقط كان لزامًا أن يكون الله موجودًا في العقل وفي الواقع الخارجي ليكون هذا الوجود وهو أعلى أنواع الوجود.

فضلاً عن هذا فإن نفس مدلول الاسم الكريم يثبت أن ليس شيء أعظم من الله، فيبقى إذن أن كون الله هو موجود معلومًا بذاته كأن دلالة الاسم نفسها قد أوضحته"[2].

والمعنى: أن كلمة الوجود إذا قصد منها الوجود العقلي والواقع الخارجي كان هذا أعظم من الوجود العقلي فقط، ولما كان لا يمكن تصور وجود شيء أعظم من وجود الله، كان واجبًا أن يكون وجوده سبحانه في العقل وفي الواقع الخارجي وفي هذا استحقاق الله للوجود الأعظم بأمر خارجي، إلا أن الاسم الكريم "الله" لا يتصور أعظم منه وبهذا استحق الله الوجود الأعظم من ذاته، وتكون دلالة الاسم هي التي أوضحته وجعلته بينا بيانا شافيًا.

هذا هو السبب الأول الذي جعل البعض يقول بعدم جواز إثبات وجود الله بالأدلة أيا كان نوعها لأنه سبحانه واضح بذاته.

السبب الثاني: يمكننا أن نتصور شيئًا موجود وأنه لا يمكن إلا أن يكون موجودًا ولا يمكن أن يتصور كونه غير موجود بمعنى أنه يمكن أن نتصور

(١) مجموعة الردود، ص ٣٣.

(٢) السابق، ص ٣٣.

شيئًا موجودًاوجودًا دائمًا لا يغيب أبدًا، وفي مقابل هذا يمكن أن نتصور شيئًا موجودًا، ويمكن أن نتصوره غير موجود في وقت من الأوقات، فأيهما يكون أعظم؟ لا شك أن الأعظم منهما من كان وجوده وجودًا دائما ولا يغيب أبدًا.

وبناء عليه لا يمكن أن نتصور أن الله غير موجود في بعض الأوقات؛ لأنه حينئذ سيكون هناك من هو أعظم منه وهو من كان وجوده دائما لا يغيب وهذا يتناقض مع حقيقة الاسم "الله" فيبقى إذن أن كون الله موجودًا معلوم بذاته"[١].

السبب الثالث: هناك قضايا منطقية يكون فيها الشيء محمولاً على نفسه مثل قولنا "الإنسان هو إنسان" وهناك قضايا محمولها يكون مضمنا في موضوعها مثل قولنا "الإنسان حيوان" فإذا قلنا إنسان فقط فهم منه أنه حيوان لأن الحيوانية جزء من الإنسان وعنصر من عناصره وبهذا يكون المحمول موجودًا وجودًا ضمنيًا في ذات الموضوع.

وسواء هذا النوع من القضايا أو ذاك النوع "يجب أن يكون في غاية المعلومية بالذات"[٢].

هذه الحقيقة موجودة في الله على أفضل وجه من وجودها في غيره لأننا إذا قلنا "الله موجود" فالمحمول إما نفس الموضوع أي أن الوجود هو الله، أو أن هذا المحمول مضمن في الموضوع ولا يمكن أن يكون أقل من هذا، وهذا يعني أن وجود الله نفس ذاته فإذا سأل سائل من هوالله بقوله: "أي شيء هو" أو "هل هو" واحد بعينه، فإذا قيل الله موجود فالمحمول يكون

---

(١) مجموعة الردود، ص ٣٣.

(٢) السابق، ص ٣٣، ٣٤.

إما نفس الموضوع أو لا أقل من أن يكون منطويًا تحت حد الموضوع وعلى هذا إذا قلنا "الله موجود" كان معلوما بذاته".

السبب الرابع: **يعتمد القائلون بعدم جواز إثبات وجود الله بالأدلة على وسيلة في المعرفة تسمى الطبع، والمقصود بهذه الوسيلة إن الإنسان بطبعه وطبيعته متشوق إلى معرفة الله[1]؛ لأن هذه هي الغاية القصوى التي يتطلع إليها الإنسان والأشياء التي تعرف بالطبع تعرف بذاتها وليس بجهد أو طلب أو بحث وكون الله موجودا حقيقة معلومة بالطبع وليس ببرهان أو قياس أو غير هذا وذاك من الأدلة التي تعتمد على العقل والمنطق، من هنا كان قولنا الله موجود معناه أنه معلوم بذاته، وما كان معلوما بذاته لم يكن بحاجة إلى الأدلة أيا كان نوع هذه الأدلة.**

السبب الخامس: **الذين يقولون بأن وجود الله لا يحتاج إلى دليل يستندون في هذا إلى قاعدة عندهم تقول: "إن ما يَعْرِفْ به جميع ما سواه يجب أن يكون معلوما بذاته"[2]. والله يعرف به جميع ما سواه، إذن فهو معلوم بذاته وليس بالأدلة والبراهين.**

وقد ضرب هذا الفريق مثالاً يوضح هذه القاعدة ويؤكدها وهو أنه: كما أن نور الشمس مبدأ كل إبصار حسي فكذلك النور الإلهي مبدأ كل معرفة

---

(١) لعلها الفطرة التي قال بها الإسلام حيث جاءت في القرآن الكريم: ﴿ فِطْرَةَ اللَّـهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ...﴾ [سورة الروم آية رقم ٣٠].

(٢) مجموعة الردود، ص ٣٤.

عقليـة، إذ أنـه تعـالى إنمـا هـو مـا يوجد فيـه النـور الأول المنقـول بالوجـه الأفضل فيجب إذن أن يكون كون الله موجودًا معلومًا بذاته"[1].

والمـراد أن الله وجـب لـه النـور الأول المنقـول أي كـلام الله أو الـوحي الإلهـي وبهـذا النـور يعرف جميـع مـا سـواه ومـا كـان كـذلك يجـب أن يكـون معلومًا بذاته لا بشيء خارج عنه.

هذه مجموعة الأسباب التي رأى توما أن الذين لا يجوزون إثبات وجود الله بالأدلـة – عقليـة أو نقليـة – قد اعتمـدوا عليهـا فـي الانحيـاز إلـى رأيهـم هذا، فمـا رأي تومـا فـي هـذه الأسباب، وهـل تسـيغ لأصـحاب هـذا الـرأي أن يتمسكوا به ؟

وللإجابة على هذا السؤال نجدها في ثنايا الفصل التالي من كتاب توما مجموعة الردود محل البحث.

---

(١) مجموعة الردود، ص ٣٤.

الفصل التاسع

في إبطال الرأي المذكور وحل الأسباب المتقدمة

يرى توما أن القول بعدم جواز إثبات وجود الله بالأدلة ليس بالرأي العلمي المستند إلى قواعد وحقائق علمية وذلك لأنه نشأ عن عادة تعود عليها البعض منذ الصغر وهي "أن يسمعوا اسم الله ويستدعوه"[1]. والعادة إذا حصلت منذ الصغر أصبحت في قوة الطبيعة أي أصبحت في قوة الحقائق التي طبع الله الإنسان عليها لذلك يستمسك صاحب هذه العادة بما تعود عليه استمساكًا قويًا كأن هذه العادة أصبحت شيئًا طبيعيًا للنفس وبينًا بذاته وحينئذ يصدر صاحب هذه العادة أحكامًا هي في الحقيقة أحكام خاطئة لأنه يفرق بين ما هو معلوم بذاته بمعنى الإطلاق أي دون تقيد بشيء من الأشياء كدليل أو برهان أو من هو باحث عن المعرفة وبين ما هو معلوم بالقياس إلينا[2].

وكأن توما يريد أن يقول في إبطاله للسبب الأول عند هذا الفريق أن الشيء البين قد يكون بينا بذاته وقد يكون غير بينًا بالنسبة إلينا ولا يلزم من كون شيء بينا بذاته أن يكون بينا لنا، فحقا الله بين بذاته لكن لا يلزم من هذا أن يكون الله بينا لنا، فإذا سأل سائل ما هو الله؟ أكان هذا هو عين وجوده فالله ووجوده شيء واحد لكن لأن الإنسان لا يستطيع بعقله أن يدرك ما هو الله فإن إدراكه ومعرفته بالله تبقى ناقصة ويكون الله مجهولاً عندنا، ومثال هذا أن القاعدة التي تقول الكل أعظم من الجزء قاعدة معلومة بذاتها

---

(١) مجموعة الردود، ص ٣٥.

(٢) السابق، ص ٣٥.

لكن لو ألقيت هذه القاعدة على إنسان لا يعرف ما هو الكل أو ما هو الجزء، وما هي العلاقة بينهما فِإن هذه القاعدة وإن كانت معلومة بذاتها إلا أنها بالنسبة لهذا الرجل العامي الذي لا يعرف الكل ولا يعرف الجزء تبقى مجهولة بالنسبة إليه أي أنه ليس كل ما كان معلومًا بذاته يكون معومًا لكل إنسان مهما كانت ثقافته ومهما كانت أحواله، وبالتالي لا بد من معرفة الله بالدليل والبرهان حتى لو كان معروفًا بذاته.

مثال آخر ضربه توما للبيان والتوضيح: الشمس بينة بذاتها فضوؤها وإشعاعها وحرارتها كل هذا يجعلها بينة بذاتها ولكنها بالنسبة لمن كف بصره تبقى مجهولة له؛ لأنه وإن أدرك حرارتها فلن يدرك ضوءها، والإنسان في القطب الجنوبي أو الشمالي لن يدرك هذه الشمس؛ لأنه لا يرى منها شيئًا، ولو رأى منها شيئًا فلا يراه بتمامه وكماله لذلك تبقى معرفته بها ناقصة فتكون مجهولة لديه وإن كانت هي بينة بذاتها.

وحتى الإنسان الذي يدرك ضوء الشمس وحرارتها وإشعاعها لا تكون معرفته بهذه الشمس معرفة تامة وكاملة بل تكون معرفة ناقصة؛ لأنه يجهل حقيقة الضوء وحقيقة الحرارة بل لا يدرك جوهر الشمس هذه بوضوح بين ومع هذا نقول: الشمس بينة بذاتها غير بينة بالنسبة لنا.

وهكذا وجود الله فإنه وإن كان بينا بذاته إلا أنه ليس بينا بالنسبة لنا لذلك يحتاج إلى الأدلة العقلية لإثبات هذا الوجود وإظهاره، "وهكذا يتفق أن ما كان من الأمور في غاية المعلومية تكون نسبةعقلنا إليه كنسبة عين الخفاش إلى نور الشمس"[(١)]. فالشمس بينة بذاتها، معلومة بذاتها لكنها

(١) مجموعة الردود، ص ٣٧.

ليست بينة بالنسبة إلى الخفاش لأن عينه لا تستطيع أن تراها.

وأما عن السبب الثاني الذي اعتمد عليه المانعون من الاستدلال على وجود الله فهو سبب ضعيف وواهٍ **لأنه لا يلزم من سماع اسم الله ومعرفته معرفة كون الله موجودًا، ذلك أن هذا الفريق يرى أن كل قضية تكون معلومة بذاتها إذا عرف طرفاها ولكن الحقيقة هي أن هذا لا ينطبق على وجود الله فإنه مع معرفتنا بالله لا يلزم من هذا معرفة وجوده في الحال وبذلك لا يلزم تحقق معرفة القضية التي إذا عرف طرفاها عرفت في الحال وذلك لعدة أسباب عرضها توما كما يلي:**

١- أنتم ثبتم هذا الدليل على معتقد أنه لا يمكن أن يتصور أحد وجود من هو أعظم من الله، والحق أن هذه الحقيقة أو هذا المعتقد ليس معلوما عند جميع الناس بدليل أن من الذين يؤمنون بوجود الله مَنْ رأى أن العالم هو الله وهذا يعني أن هناك من يتصور وجود من هو ما لله في عظمة وجوده وهو العالم أو على الأقل من هو مثل الله في هذه العظمة لذلك فهذه القاعدة أو هذا المعتقد ساقط لذلك لا يصح بناء حقائق دينية عليه.

٢- ولو سلمنا جدلاً أن الكافة من الناس لا يتصورون وجود من هو أعظم من الله فلا يلزم من ذلك ضرورة أنه يوجد في طبائع الأشياء أي في الواقع الخارجي شيء لا يمكن أن يتصور أعظم منه، والمعنى أنه يمكن لإنسان ما أن يتصور أنه لا يوجد أعظم من الله، فهذا تصور ذهني أو عقلي لكنه لا يلزم عليه أن يكون هذا الشيء الذي هو في الذهن له وجود خارج الذهن أو طبائع الأشياء "فكون الذهن يتصور ما يدل عليه بهذ الاسم "الله" لا يلزم عنه كون الله موجودًا من خارج الذهن ومن ثم

فما لا يمكن أن يتصور أعظم منه لا يجب أن يكون في الذهن"[1]. أما في خارج الذهن فلا يجب وجود هذا التصور.

٣- وحتى لو أمكن تصور من هو أعظم من الله أو تصور عدم وجوده، فهذا التصور ليس راجعًا إلى نقص في وجوده تعالى أو لعدم تحققه في الواقع الخارجي؛ لأن وجود الله واضح غاية الوضوح في حدود ذاته هو لكنه غير واضح بالنسبة لعقولنا لضعف هذه العقول عن إدراك حقيقة ذاته لذلك لزم الوصول إلى معرفة الله بالدليل العقلي أي بالبراهين العقلية.

ولما كان وجود الله عين ذاته فالذين "يشاهدون ذات الله نفسها كونه موجودًا هو عندهم في غاية البيان من أجل أن ذاته عين وجوده ولكن لما كان لا يمكننا أن نرى ذات الله كان أننا نتوصل إلى معرفة وجوده لا به ذاته بل بمعلولاته[2].

٤- وفي إبطال توما للدليل الرابع الذي جاء به القائلون بأن وجود الله واضح لا يحتاج إلى دليل رأى توما أنه واضح البطلان ذلك أن معرفة الله بالطبع أي طبع الإنسان واشتياقه إلى معرفة الله لأن هذه هي السعادة فالحقيقة أن هذا الاشتياق وهذا الطبع إنما يأتي بالسعادة العامة أو ما يقال بأنها على وجه العموم ألا وهي كمال الله وخيريته لكن السعادة الخاصة أو التي هي على وجه الخصوص فهي مشاهدة ذات الله وهذه لا تأتي عن طريق الطبع أو المعرفة الطبيعية ولا سبيل إليها إلا بالبرهان العقلي[3].

---

(١) مجموعة الردود، ص ٣٧، ٣٨.

(٢) السابق، ص ٣٩، ٤٠.

(٣) السابق، ص ٤٠.

وخلاصة إبطال توما للدليل الرابع لهذا الفريق أن المعرفة التي تأتي عن طريق الطبع أي الطبيعة الإنسانية إنما هي معرفة عامة وتعني معرفة كمال الله وخيريته وهذه عند توما شبه من أشباه خيرية الله وجوده سبحانه لكن هناك معرفة خاصة وهي مشاهدة ذات الله وهذه لا تأتي بالطبع لذلك كان لا بد من الدليل العقلي للوصول إلى هذه المعرفة الخاصة.

٥- ونأتي إلى آخر أدلة المانعين من الاستدلال على وجود الله؛ لأن وجود الله واضح لا يحتاج إلى أدلة لإثباته، وقد رأى توما أن هذا الدليل دليل سهل حله[١] ونقضه وإبطاله، فحقا: الله يعرف به كل شيء لكن لا يفهم هذا على أن معرفة الإنسان للأشياء متوقفة على معرفته بالله وأنه طالما أن الإنسان يعرف الأشياء من حوله كما هوالواقع يكون عارفًا بالله، وإنما نحن نعرف الأشياء؛ لأن كل معرفة عندنا إنما هي مسببة عن فعله وفيضه[٢]، أي أن معرفتنا بأي شيء ترجع إلى سبب هو فعل الله وفيضه وليس معرفة ذات الله.

أما عن معرفة ذات الله وحقيقته فهذه معرفة مستحيلة، والكتب المقدسة عرفت الناس بالله تعالى واستدلت على ذلك بمخلوقات الله وآثاره وأفعاله.

أما عن معرفة وجود الله ووحدانيته.. الخ فهذه معرفة ممكنة بالنقل والعقل.

---

(١) مجموعة الردود، ص ٤٠.

(٢) السابق، ص ٤٠.

الفصل العاشر

في رأي القائلين بأن كون الله موجوداً ولا يمكن إقامة البرهان عليه وإنما يقع به الإزعان اليقيني بالإيمان فقط[١]

من هذا العنوان يتبين أن هذا الفريق يرى أنه لا بد من إقامة الدليل على وجود الله – ﷻ – ولكن يجب أن يكون هذا الدليل حقيقة إيمانية أي وحيا دينيا ونصا من الكتب المقدسة، أما الدليل العقلي فيراه هذا الفريق دليلا لا يصح الاعتماد عليه لأن العقل وحده لا يستطيع الوصول إلى معرفة وجود الله.

ويلتمس توما مبررًا تمسك هذا الفريق بأدلة النص الديني ورفضه أدلة العقل فيرى أن الذي دفعهم إلى هذا عدة أسباب:

١- ضعف بعض الأدلة العقلية التي اعتمد عليها فريق من الناس في إثبات وجود الله – ﷻ – وعلى رأس هؤلاء بعض الفلاسفة الذين يقولون إن الذات والوجود شيء واحد ثم يضعون هذه الأدلة الضعيفة لإثبات هذا التوحد بين الذات الإلهية والوجود الإلهي[٢]، فعند هذا الفريق أن جواب السؤال الذي يقول: "ما هو الله" هو نفس الجواب عن السؤال الذي يقول: "هل هو" وهذا خطأ لأن التوصل بطريق العقل إلى معرفة الله "إن الله ما هو" غير ممكن وبالتالي لم يمكن إثبات أن الله "هل هو"[٣].

والمقصود أن الفريق الذي يمنع إثبات وجود الله بالرهان العقلي اعتمد

(١) مجموعة الردود، ص ٤١.
(٢) السابق، ص ٤١.
(٣) السابق، ص ٤١.

في هذا على أن الجواب عن السؤال الذي يقول ما هو الله هو نفس الجواب الذي يكون عن " إن الله هل هو" والصحيح أننا لا نستطيع أن نجيب بالعقل عن السؤال الأول "الله ما هو" وعجز الإنسان عن الإجابة بعقله عن هذا السؤال ترتب عليه العجز عن السؤال الثاني "هل هو" وقد أدى هذا العجز إلى الزعم الذي يقول لا يمكن إثبات وجود الله بالدليل العقلي لكن الحقيقة التي يؤمن بها توما أنه وإن كان لا يمكن معرفة الذات الإلهية إلا عن طريق الإيمان الوحي فإنه يمكن إثبات وجوده تعالى بالدليل العقلي.

٢- وفي بيان السبب الثاني الذي جعل هذا الفرق يتمسك بالوحي فقط لإثبات وجود الله يقول توما أن عند هذا الفرق أنه إذا ارتفعت معرفة ذات الله وماهيته فلا سبيل لإثبات وجود الله أي أنه طالما لا يمكن معرفة ذات الله وماهيته بالعقل – وهذا يؤمن به توما – لا يمكن إثبات وجوده تعالى بالعقل وهذا حق لكن لو تمت معرفة الله بالوحي أمكن حينئذ معرفة وجوده تعالى بالعقل وليست هناك ضرورة لإثبات هذا الوجود بالوحي فقط وامتناع إثباته بالدليل العقلي.

٣- والسبب الثالث الذي جعل هذا الفريق يقول بما يقوله هو أنهم يرون أن مبادئ البرهان الذي يتم به إثبات وجود الله مصدره هو المحسوسات أما ما كان فوق الحس والمحسوسات فهذا لا يصح إقامة البرهان عليه، ولما كان كون الله موجودًا هو مما فوق الحس والمحسوسات لم يصح إثبات وجوده تعالى بالدليل العقلي.

هذه هي أسباب خطأ هذا الفريق في قولهم لا يصح الاستدلال على وجود الله بالدليل العقلي، وقد رأى توما أن هذا المذهب فاسد للأسباب الآتية:

ردود وإبطال توما لأدلة هذا الفريق:

الردَّ الأول:

في أول رد لتوما على الفريق الذي يثبت وجود الله بالوحي فقط ويرفض إثباته بالعقل، هو أن صناعة البراهين العقلية تَرُدُّ على هذا الفريق إذ إن هذه الصناعة تعلمنا وترشدنا إلى معرفة الله - ﷻ - باعتباره علة لكل شيء في الوجود، وما كان علة فمعلولاته تدل عليه لأنه لا يوجد معلول بدون علة ولما كانت المعلولات موجودة أمامنا ونشاهدها في الواقع الخارجي إذن لابد لها من علة هذه العلة هي الله وبذلك تكون آثار الله ومعلولاته دالة عليه وهي وسيلة لمعرفتنا به، وإذا كان ذلك كذلك كان إثبات وجود الله قد تحقق بالبرهان العقلي؛ لأن الحقيقة أنه ما من موجود إلا وله مُوجدٌ.

وقد ضمن توما هذا الرد في جملة مختصرة وعارضة حيث قال: "صناعة البرهان"، فإنها تعلمنا استنتاج العلل من المعلولات"[1].

الرد الثاني:

تدرج العلوم في المراتب يبطل رأي هذا الفريق إذ أنه من المؤكد المشاهد أن العلوم متفاوتة في مراتبها فإذا كان هناك علم يعتمد على الحسيات في استخلاص المعلومات والنتائج فلابد وأن يكون هناك علم أعلى من ذلك يكون معتمدًا على العقليات وإلا لما كان هناك علم فوق العلم الطبيعي[2] والمقصود أن العلوم ليست على مرتبة واحدة وإنما هي متفاوتة في درجاتها فأقلها درجة تلك العلوم المعتمدة على الحس، أما العلوم المعتمدة على العقل فهذه أعلى مكانة

---

(١) مجموعة الردود، ص٤٢.

(٢) السابق، ص ٤٢.

ودرجة، ولما كان لابد وأن يكون فوق العلوم الحسية علوم عقلية كان لابد من اعتماد هذه العلوم على العقل.

ولعل مراد توما من هذا الكلام أن معرفة الله أو معرفة وجوده يجب أن يكون بأعلى العلوم وأعلى الوسائل وهي تلك العلوم العقلية التي تستقي بالعقل وتعتمد على البراهين العقلية.

الرد الثالث:

واجتهاد[1] الفلاسفة السابقين في إثبات وجود الله بالبرهان العقلي يبطل رأي هذا الفريق الذي يدعي عدم صحة إثبات وجود الله بالدليل العقلي وذلك لأن هؤلاء الفلاسفة لم يجهدوا أنفسهم في البحث والدراسة والتحليل والاستنتاج فيما لا فائدة فيه، وإنما هم وجدوا في هذه الدراسات العقلية فائدة كبيرة، وكما وجدوا في تلك البراهين العقلية منهجًا قويًا ووسيلة طيبة لإثبات وجود الله فقاموا بهذا المجهود لإحقاق الحق وإبطال الباطل، وليس يعقل أن يجهد الفلاسفة أنفسهم في أمر عبثي لا فائدة ترجى من ورائه.

على أن: النصوص الدينية والحقائق الرسولية تثبت فساد هذا المذهب الذي يرفض البراهين العقلية لأن هذه النصوص وتلك الحقائق نصت على أن الأمور الإلهية غير المنظورة عرفت بالمبروآت[2] أي بالمصنوعات والمخلوقات وقد جاء هذا النص الرسولي في رسالة بولس إلى أهل رومية حيث قال .. إذ معرفة الله ظاهرة فيهم لأن الله أظهرها لهم لأن أموره غير

(١) مجموعة الردود، ص ٤٢، ٤٣.

(٢) السابق، ص ٤٣.

المنظورة تُرى منذ خلق العالم مَدْركةً بالمصنوعات"[1] فالنص الرسولي يثبت وجود الله عن طريق مصنوعات الله ومخلوقاته وهذا استدلال عقلي وبهذا يكون بولس الرسول قد اعتمد على البراهين العقلية في إثبات وجود الله، وهذا الصنيع يفسد رأي الذين يرون عدم صحة إثبات وجود الله بالأدلة العقلية وأن الواجب عند هذا الفريق هو الاستدلال بالنصوص الدينية فقط.

الرد الرابع:

عرفنا سابقًا أن الذين يقولون بفساد البراهين العقلية مدعين أنه لا يصح الاعتماد عليها في إثبات وجود الله كانوا معتمدين في هذا على مقولة للفلاسفة مفادها أن الذات والوجود شيء واحد في الله وقد رأى توما أن الاعتماد على هذه المقولة لا ينهض برهانًا لهم، لماذا ؟ لأن الوجود الذي هو والذات شيء واحد إنما "يراد به الوجود الذي يقوم الله به في ذاته"[2] ونحن البشر نجهل كيفية هذا الوجود كما نجهل الذات الإلهية، وهذا هو المراد من قول الفلاسفة: "أن الذات والوجود واحد".

أما الوجود الذي هو من تأليف العقل فليس هو المراد من قول الفلاسفة: "الذات والوجود واحد" ذلك أن هذا الوجود الذي هو من تأليف العقل يقع تحت البرهان[3] أي يمكن إثباته بالبرهان.

والخلاصة أن للوجود الإلهي صورتين **الأولى الوجود الذي يقوم الله به في ذاته" وهذا لا نستطيع إدراكه كما لا تستطيع الفلاسفة إدراكه لذلك قال**

(١) رسالة بولس الأولى إلى أهل رومية ١: ١٩، ٢٠.

(٢) مجموعة الردود، ص٤٣.

(٣) السابق، ص ٤٤.

الفلاسفة: إنهما أي: الذات والوجود أمر واحد أما الوجود الذي نستنتجه عن طريق العقل والبرهان العقلي فليس هو المراد من قول الفلاسفة أنهما – أي الذات والوجود – شيء واحد، وبالتالي فاعتماد هذا الفريق الذي يرفض الاستدلال بالأدلة العقلية على هذه المقولة لمنع الاستدلال على وجود الله بالبرهان العقلي اعتماد خاطئ ونهج غير صحيح ولا يوجد مانع يمنع من إثبات وجود الله بالدليل العقلي.

وأخيرًا: فمما يؤكد بطلان هذا المذهب أن الله وإن كان فوق الحس والمحسوسات[1]، فإن هذه المحسوسات هي معلولات لله – ﷻ – ونحن أي الذين يرون جواز إثبات وجود الله بالبرهان العقلي نستمد البراهين العقلية من هذه المحسوسات المادية لإثبات وجود الله، وهذا يعني في آخر الأمر أن معرفتنا حسية سواء أكانت مباشرة أو بواسطة العقل، وبالتالي عدم التقيد بالنصوص الدينية في إثبات وجود الله لأنه يمكن أن يكون مع النصوص الدينية براهين عقلية نستمدها من الواقع الحسي المشاهد.

(١) مجموعة الردود، ص ٤٥.

الفصل الحادي عشر

في البينات التي يؤتي بها لإثبات أن اللّه موجود[1]

لما كان توما من الذين يجوزون الاستدلال بالأدلة العقلية لإثبات وجود الله - ﷻ - فقد وضع جملة من هذه الأدلة لإثبات هذه الحقيقة.

وفي بداية حديث توما عن إثبات وجود الله بالبراهين العقلية اعترف بأن هذه البراهين يستمدها من طرفين هما: الفلاسفة والأئمة الكاثوليكيون.

أدلة توما على إثبات وجود الله:

الدليل الأول: وبنسبة توما إلى "أرسطو"[2] فيلسوف اليونان المشهور، وهذا البرهان يعتمد على الحركة.

وقد سلك أرسطو في تحرير هذا الدليل مسلكين هما[3]:

المسلك الأول:

كل متحرك إنما يتحرك عن غيره، والحس يشهد أن شيئًا يتحرك كالشمس مثلاً، فإذا هو - أي الشمس أو الإنسان أو الحيوان - يتحرك عن محرك آخر، هذا المحرك الذي حرك الشمس أو الإنسان أو الحيوان أو غير هذا وذاك إما أن يكون متحركًا أو غير متحرك، فإن كان غير متحرك فهذا هو ما نقصد أنه المحرك

---

(١) مجموعة الردود، ص ٤٥.

(٢) أرسطو: فيلسوف يوناني ولد بأسطاغبرا في شمال اليونان سنة ٣٦٧ ق م وتوفى سنة (٣٢٢ ق م). يراجع: معجم الفلاسفة المختصر، د/ خلف محمد الجراد، ص ١٥، ١٦، ط: الأولى سنة ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م، الناشر، مجلة المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

(٣) مجموعة الردود، ص ٤٥ وما بعدها.

لغيره ولا يحركه غيره وهذا ما يسميه توما وأمثاله من الفلاسفة والأئمة الكاثوليكيين "الله"(١).

أما لو كان المحرك للأشياء المتحركة متحرك هو الآخر لزم أن يكون له محرك، فإما أن تستمر سلسلة المحركات المتحركة عن غيرها إلى ما لا نهاية وهذا ممتنع أي مستحيل أن يكون مثل هذا، وإما أن نصل وجوبًا إلى محرك غير متحرك، ولما كان التسلسل ممتنعًا لزم وجوبًا وجود محرك غير متحرك عن غيره وهذا هو ما يسميه توما "الله"(٢).

هذا هو البرهان الذي أخذه توما عن أرسطو، وقد وجد أنه يلزم عن هذا الدليل إثبات قضيتين حتى يصح الاستدلال على وجود الله بهذا البرهان وحتى تكون النتيجة صادقة، أما القضية الأولى فهي: "كل متحركٍ هو متحركٌ عن غيره، وهذه القضية قد أثبتها أرسطو بثلاثة أضرب، وأما الثانية فهي امتناع التسلسل في المحركات والمتحركات(٣).

إثبات القضية الأولى: (كل ما كان متحركًا فهو متحرك عن غيره):

الضرب الأول:

افتراض أن الشيء المتحرك هو الذي يحرك نفسه وإلا فهو متحرك عن غيره" فإن قلنا إنه هو الذي يحرك نفسه لزم أن يكون هو المتحرّكُ أوّلاً، بمعنى أنه يتحرك من جهة نفسه وليس بسبب جزء منه، وقد ضرب مثالاً على هذا الذي يتحرك بجزء منه بحيوان تحركت رجله فتحرك جسمه، فحركة

---

(١) مجموعة الردود، ص ٤٧.

(٢) السابق، ص ٤٦، ٤٧.

(٣) السابق، ص ٤٧.

الجسم هنا سببها حركة جزء من الحيوان وهذا الجزء يتحرك بسبب جزء آخر وهكذا فندخل في التسلسل الممتنع.

فضلاً عن هذا فإنه يكون منقسمًا إلى جزء متحرك من غيره وجزء محرك لغيره كما يكون مركبًا من أجزاء تفعل في غيرها وأجزاء تنفعل من غيرها، وبهذا وذاك لا يكون محركًا لنفسه ولا يكون متحركًا أولاً، ولكن الذي فرضنا أنه محرك لنفسه يجب أن يكون هو المتحرك أولاً وأنه إذا سكن جزء منه لزم سكون الكل.

فإن كان جزء متحركًا ثم سكن ولم يسكن الكل بل كان هناك جزء متحرك فإنه حينئذ لا يكون هو المتحرك أولاً كما لا يكون متحركًا من نفسه، وقد فرضنا إنه يتحرك بذاته، وعلى هذا فما فرضناه يتحرك بذاته فإنما هو غير متحرك بذاته فلزم إذا بالضرورة أن كل ما يتحرك إنما يتحرك عن غيره[1].

والمعنى: أن كل ما هو متحرك لابد وأن يكون متحركًا من غيره ولا يصح أن يكون متحركًا من نفسه لأن المتحرك من نفسه هو المتحرك أولاً وهو الذي إذا سكن جزء منه يجب أن يسكن الكل وهذا غير متحقق في المتحركات من حولنا وهذا يعني أن ليس شيء من حولنا يتحرك من نفسه وإنما لابد وأن يكون متحركًا من غيره.

الضرب الثاني:

المحركات والمتحركات نوعان: متحرك ومحرك بالعرض، ومحرك ومتحرك بالذات، والمتحرك بالذات منه ما يتحرك من ذاته أي بالطبع كالحيوانات، ومنها ما يتحرك بالطبع ولكن من غير ذاته كالجماد، ومنها ما

(١) مجموعة الردود، ص ٤٨، ٤٩.

يتحرك خلاف الطبع وقسرا.

فالمحركات والمتحركات بالعرض: هذه هي التي تحرك أو تتحرك بالعرض أي لعروضها لشيء يحرك أو متحرك، وحركة هذا النوع ليست من ذاته لأنه يتحرك عند حركة غيره.

والذي يتحرك قسرًا لا يتحرك من ذاته وإنما بسبب القسر الواقع عليه وذلك كتحرك ورق الشجر بسبب الهواء أو العواصف، والذي يتحرك بالطبع أي طبيعته هي التي تقتضي هذه الحركة المعينة كسباحة سبع البحر في الماء أو حركات الحيوانات عمومًا فهذه ليست من ذاتها وإن كان قد يظن البعض أنها من ذاته وإنما هي – أي حركة الحيوانات هذه – عن النفس الحيوانية.

والمتحرك بالطبع لكن عن غير ذاته: كحركة شيء ثقيل ينزل إلى أسفل أو شيء خفيف كورق يصعد إلى أعلى، فهذا وذاك ليس متحركًا بذاته لأن الذي حرك الحجر إلى أسفل إنما هو الثقل والذي حرك الورق إلى أعلى إنما هو الخفة، وهذه حركة من الغير وليست حركة ذاتية.

إذًا الحركات إن كانت بالعرض أو كانت من ذات الشيء بأن كانت قسرًا أو كانت بالطبع بأن كان متحركًا عن ذاته كالحيوانات أو غير متحرك عن ذاته كالثقيل والخفيف(١)، كل هذا هو متحرك عن غيره.

الضرب الثالث:

ليس شيء يكون فاعلاً بالقوة وفاعلاً بالفعل(٢) بالنسبة لعمل معين مثل الكتابة فليس يمكن أن تكون الكتابة بالقوة والكتابة بالفعل واقعان معًا في وقت

(١) مجموعة الردود، ص ٥٠، ٥١.

(٢) السابق، ص ٥١.

واحد، هذه القاعدة تنطبق على التحرك والحركات بمعنى أننا إذا نظرنا إلى ما يتحرك من حيث أن طبيعته أن يتحرك – أي أن طبيعته أن يكون متحركًا وإن لم يكن متحركًا بالفعل كالإنسان فإنه مريد من حيث له إرادة وهذا يكون بالقوة فهذا يكون متحركًا بالقوة وليس بالفعل ولما كانت الحركة عبارة عن فعل ما هو بالقوة فإن ما يحرك من حيث هو محرك إنما يكون بالفعل وهذا يعني أن ما هو بالقوة ليس هو ما يكون بالفعل وما يكون بالفعل ليس هو ما يكون بالقوة.

والنتيجة: التي وصل إليها توما أنه ليس شيء يكون بالقياس إلى شيء واحد محركًا ومتحركًا بالفعل وبلغة أوضح ليس شيء يكون فاعلاً محركًا ومفعولاً متحركًا بالنسبة لشيء معين في وقت واحد، أي ليس شيء يحرك ذاته لأنه بالنسبة إلى أدائه للفعل يكون فاعلاً وبالنسبة لوقوع الفعل عليه يكون مفعولاً فيكون فاعلاً ومفعولاً في وقت واحد وهذا شيء مستحيل.

هذه هي الأضرب الثلاثة أو البراهين الثلاثة التي وضعها توما ليثبت أن ما كان متحركًا لابد وأن يكون متحركًا عن غيره، وقد اعترف توما بأنه جاء بهذه البراهين الثلاثة من طبيعيات أرسطو.

القضية الثانية:

وهي امتناع التسلسل في المحركات والمتحركات وهذه قد أثبتها أرسطو بثلاثة براهين[1] هي:

البرهان الأول لإثبات أن التسلسل في الحركة مستحيل:

لو كان التسلسل صحيحًا للزم أن تكون عندنا أجسام غير متناهية العدد أي لا نهاية لها لأن ما يتحرك هو منقسم أي ذو أجزاء وجسم، وكل جسم

---

(١) مجموعة الردود، ص ٥٢.

يحرك متحركًا فهو يتحرك عندما يحرك وعلى هذا فتلك الأجسام المتحركات اللامتناهية تتحرك معًا[١] فالجسم الأول يحرك الثاني والثاني يحرك الثالث وهكذا إلى ما لا نهاية عندما يتحرك واحد منها، ولكن الجسم الواحد منها لكونه محدودًا أي محددًا بطول وعرض وعمق مثلاً فإنه يكون متناهيًا فحين يتحرك إنما يتحرك في زمان متناه[٢]، وهكذا كل جسم من هذه الأجسام، وهذا يعني أن اللامتناهيات إنما تتحرك في زمان متناهٍ وهذا محال، لذلك كان التسلسل في المحركات والمتحركات مستحيل[٣].

<u>ولنضرب مثالاً للتوضيح:</u>

بقطع أو دينمو غير متناهية العدد ثم رصت الأول فالأول والثاني فالثاني وهكذا إلى ما لا نهاية فإذا حركنا الأول فإنه يحرك الثاني والثاني يحرك الثالث وهكذا، فإذا تم تحريك الأول للثاني وانتهى، فإن زمن الحركة ينتهي فتكون الحركة للقطعة الأولى أو الثانية قد استغرقت وقتًا وزمنًا محددًا فتكون هذه الأعداد غير المتناهية تحركت في زمان متناه وهذا محال[٤] والذي أوقعنا فيه فرض وجود حركات متسلسلة لا نهاية لها في زمن متناه.

<u>البرهان الثاني لإثبات أن التسلسل في الحركة مستحيل:</u>

المحركات والمتحركات بترتيب ونظام معين كالترس الكبير المتصل به ترس أصغرمنه، وهذا مركب عليه ترس أصغر منه وهكذا تكون الحركة فيها

(١) مجموعة الردود، ص ٥٣.
(٢) السابق، ص ٥٣.
(٣) السابق، ص ٥٣.
(٤) السابق، ص ٥٣.

بترتيب ونسق معين بحيث إذا تحرك الأول تبعه تحرك الثاني، ثم تبعه تحرك الثالث وهكذا.

هذه المحركات والمتحركات بالترتيب إذا توقف الأول منها توقفت جميع الحركات والمحركات التي هي بعد الأول حتى لا يكون هناك واحد منها يتحرك أو يحرك وهذا لأن الأول علة تحريك كل ما كان بعده من أجسام أو حركات وهذا يؤدي إلى انعدام الحركات في المنظومة كلها أو قل في العالم كله وهذا مستحيل، أما فرض وجود حركات ومتحركات غير متناهية فهذا يمنع أن يكون هناك محرك أول وهذا مثل الكرة الأرضية وحينئذ تكون السلسلة كلها كأنها أواسط[١] وهذا الأقتراض يترتب عليه ألا يكون شيء متحرك وذلك لعدم وجود الأول الذي يكون علة للجميع ويحرك الجميع، وعليه فلا يكون شيء في العالم متحركًا[٢] أما وأننا نشاهد كل شيء يتحرك كان لهذا التحرك علة أولى محركة، وما كان له أول لابد وأن تكون له نهاية وهذا باطل أدى إليه افتراض سلسلة من الحركات غير متناهية.

البرهان الثالث لإبطال التسلسل في الحركات:

إذا كانت عندنا آلة فهذه يستحيل تحريكها إذا لم يكن هناك شيء آخر يحركها تحريك الأصيل أي تحريك الأول أو علة أولى تحرك هذه الآلة فإذا فرضنا التسلسل في المحركات والمتحركات كانت كل السلسلة متحركة تحريك الآلة أي لا تتحرك إلا إذا كان شيء آخر يحركها تحريك الأصيل[٣]، وهذا

(١) مجموعة الردود، ص ٥٤.

(٢) السابق، ص ٥٥.

(٣) السابق، ص ٥٥.

يعني ألا يكون هناك محركات أو متحركات لعدم وجود هذا المحرك الأصيل وهذا باطل لأننا نشاهد في الواقع محركات ومتحركات مما يعني أن هناك محرك أصيل ووجود المحرك الأصيل يمنع من تسلسل الحركات لأن هذا المحرك الأصيل هو علة أولى فلولاها لما كان هناك حركات أبدا.

فإذا ثبت أن كل متحرك لابد وأن يكون متحركًا عن غيره، وإذا ثبت أن التسلسل في الحركات مستحيل، إذا ثبت هذا وذاك ثبتت صحة المسلك الأول من البرهان الأول في إثبات وجود الله[1].

المسلك الثاني من البرهان الأول في إثبات وجود الله:

القضية التي تقول: **"إن كل محرك يتحرك عن غيره" إما أن تكون صادقة بذاتها أو بالعرض، فإن كانت صادقة بالعرض – حكم ما لو كانت القضية صادقة بالعرض: لم تكن قضية ضرورية"[2].**

وإذا لم تكن القضية التي معنا ضرورية كانت من الممكنات[3] ويكون قولنا كل محرك يتحرك قضية ممكنة أي يمكن هذا الشيء يتحرك ويمكن ألا

---

(١) مجموعة الردود، ص ٥٥.

(٢) القضية الضرورية المطلقة: هي التي يحكم فيها بضرورة ثبوت المحمول للموضوع أو ضرورة سلبه عنه ما دام ذات الموضوع موجودة، أما التي حكم فيها بضرورة الثبوت، فضرورية موجبة، كقولنا كل إنسان حيوان بالضرورة، فإن الحكم فيها بضرورة ثبوت الحيوان للإنسان في جميع أوقات وجوده، وأما التي حكم فيها بضرورة السلب فضرورية سالبة، كقولنا: لا شيء من الإنسان بحجر بالضرورة، فالحكم فيها بضرورة سلب الحجر عن الإنسان في جميع أوقات وجوده.
كتاب التعريفات للجرجاني، ص ١٣٧، ١٣٨ (باب الضاد).

(٣) مجموعة الردود، ص ٥٥.

يتحرك، ويمكن لهذا المحرّك أن يحرك ويمكن ألا يحرك وهذا يعني أنه يمكن في وقت من الأوقات ألا يتحرك المحرِّك وإذا لم يتحرك المحرك فلن تكون هناك حركة أي أنه يمكن ألا يتحرك شيء وحينئذ يوجد ما هو غير متحرك وهذا يتناقض مع القول بتسلسل الحركات والمتحركات لأن هذا أي القول بالتسلسل يمنع من وجود محرِّك لا يتحرك وبالتالي امتناع الحركة وانعدامها في وقت من الأوقات، وهذا مستحيل عند أرسطو - وبالتالي تلميذه توما -.

فإذا كان الأمر هكذا كان افتراض أن القضية: "كل محرك يتحرك عن غيره ليست من الممكنات وغير صادقة بالعرض".

مثال آخر على المسلك الثاني:

اتحاد شيء بشيء قد يكون اتحادًا بالعرض وقد يكون اتحادًا بالذات فإذا قيل إن سقراط موسيقى ولونه أبيض فهذا ليس اتحادًا بالذات وإنما هو اتحاد بالعرض إذ يمكن أن يكون أفلاطون أبيض وليس بموسيقى ويمكن أن يوجد شخص ثالث يكون موسيقيًا وليس بأبيض، هذه هي حقيقة الاتحاد بين شيئين بالعرض[1].

وبناء على هذا التصور: إذا اتحد التحريك والتحرك في شيء واحد بالعرض فإنه يمكن أن يوجد التحرك دون التحريك أي يوجد شيء يتحرك دون محرك حركة كما يمكن أن يوجد في شيء التحريك دون التحرك أي يوجد المحرك ولا توجد الحركة وهذا باطل أدى إليه افتراض أن الاتحاد بين المحرك والتحريك قد يكون بالعرض لذلك لا يصح أن يكون الاتحاد بين المحرك والتحريك بالعرض وبالتالي فالقضية لم تكن صادقة بالعرض.

---

(١) مجموعة الردود، ص ٥٦، ٥٧.

حكم ما لو كانت القضية - كل متحرك يتحرك عن غيره – صادقة بالذات:

لو كانت القضية التي تقول إن كل متحرك يتحرك عن غيره صادقة بذاتها لزم عن هذا أمر محال، لماذا ؟

لأن وجود الحركة قد جاء عن محرك، هذا المحرك إما أن تكون حركته من نفس الحركة التي يحرك بها وإما بنوع آخر.

حكم ما لو كانت حركة المحرك هي نفس الحركة التي حرك بها الغير:

ولو كانت حركة المحرك من نفس الحركة التي يوقعها على الغير لأدى هذا إلى محال هو أن الذي "يغير يتغير، والشافي يُشفى وأن المعلم يتعلم نفس العلم الذي يعلمه أيضًا"[(١)] وهذا باطل لأن الضرورة تقتضي أن المعلم تكون عنده حصيلة علمية متوفرة وأما الطالب فيكون خاويًا من هذه الحصيلة العلمية، وبهذه الصورة يكون الشيء الواحد وليكن العلم للمعلم حاصلاً وغير حاصل لشخص واحد، وهذا خلف.

فباعتبار أنه معلم يجب أن يكون عنده علم وباعتبار مماثلته لغير المتعلم يكون خاليًا من العلم، والذي يُشفى الآخرين يجب أن يكون عالمًا بالتطبيب وباعتبار مماثلته للمريض يجب أن يكون خاليًا من التطبيب وهذا خلف أدى إليه القول بأن حركة المحرِّك من نفس حركة المتحرك.

أما لو كانت حركة المحرِّك مخالفة لحركة المتحرك كأن يتحرك المغير أو المحول أي المحرك بالحركة المكانية أما المتحرك فيتحرك بحركة النمو بدلاً من الحركة المكانية وهكذا جميع الحركات فإنه يحصل في هذه الصورة أو هذه الحالة أن تكون أجناس الحركات وأنواعها محدودة ومتناهية وبالتالي لا

---

(١) مجموعة الردود، ص ٥٧.

يكون هناك حركات غير متناهية، وبهذا يثْبُتْ وجود محرك أول لا يتحرك"[1]، ولا ينقض هذه النتيجة القول بالدور لأنه سيلزم على هذا التلازم السابق وهو "أن الذي يحرك بحسب نوع من الحركة إنما يتحرك بحسب ذلك النوع عينه إن لم يكن مباشرة وعلى الاستقامة فتسببا وبواسطة"[2].

حقيقة وطبيعة المحرك الأول:

بهذه الاستدلالات السابقة ثبت أنه لابد من محرك أول غير متحرك عن غيره، هذا المحرك الأول غير المتحرك عن غيره يوجد ويتحقق على وجهين:

الأول: **أن يكون هذا المحرك الأول غير متحرك البتة أي لا يتحرك أبدًا، وبهذا يتحقق المقصود وهو وجود محرك أول غير متحرك عن غيره.**

الثاني: **أن يكون هذا المحرك الأول غير المتحرك عن غيره متحركًا عن نفسه، وهذا هو الأرجح عند توما – بناء على أنه الأرجح عند أرسطو – لأن ما هو بذاته يكون متقدمًا على ما هو بغيره "ومن ثم فإن المتحرك الأول في المتحركات أيضًا الصواب فيه أن يكون متحركًا عن ذاته لا عن غيره"[3].**

ملاحظات: **القول بضرورة وجود محرك أول متحرك عن ذاته لا عن غيره يوقع في بعض المحالات منها أن يقال أن الذي يحرك ذاته إنما كله عن كله وهذا يلزم عليه ما قيل أن الشخص الواحد يكون معلمًا ومتعلمًا معًا في وقت واحد وأن يكون الشيء الواحد بالقوة وبالفعل معًا[4].**

---

(١) مجموعة الردود، ص ٥٧.

(٢) السابق، ص ٥٨.

(٣) السابق، ص ٥٨.

(٤) السابق، ص ٥٨، ٥٩.

لو صدقت هذه القضية بالعرض لم تكن ضرورية وإذا لم تكن ضرورية كانت من الممكنات ولو كانت من الممكنات لكان يمكن أن تكون الحركة معدومة في العالم في وقت من الأوقات وهذا محال.

إذن القضية "كل محرك يتحرك" ليست من الممكنات ولا يثبت صدقها بالعرض.

ويؤكد عدم صدق هذه القضية بالعرض أنه لو اتحد شيئان بالعرض فإنه يمكن وجود أحد الشيئين دون الآخر ووجود الآخر دون الأول، وعلى هذا إذا اتحد التحريك والتحرك بالعرض لوجد التحريك بدون التحرك ووجد التحرك بدون التحريك وهذا محال أدى إليه افتراض الاتحاد بالعرض.

إذن كل محرك يتحرك غير صادقة بالعرض فهل هي صادقة بذاتها ؟

لا: لأن صدقها بذاتها يؤدي إلى عدة مستحيلات سبق ذكرها آنفًا ومثالها أن المعلم يتعلم نفس العلم الذي يعلمه.

فإذا لم يثبت صدق هذه القضية بالعرض أو بالذات لزم صدق عكسها وهو وجود محرك أول لا يتحرك وهو المطلوب.

فإن قلنا – تخلصًا من هذا الاعتراض – إن الذي يقوم بالتحريك هو جزء من المحرك الأول والجزء الآخر يكون متحركًا، أوقعنا هذا أيضًا في بعض المحالات من أظهرها أنه يوجد شيء محرك غير متحرك وهذا يستلزم أن يكون له جزء وبالتالي يكون كل محرك منقسم جزء يحرك وجزء يتحرك.

ولا يصلح للخروج عن هذا المأزق أن يقال أن كلا الجزأين متحركان بأن يتحرك كل جزء منهما عن الجزء الآخر، كما لا يصلح أن يقال أن الجزء

الواحد يحرك نفسه ويحرك الجزء الآخر، كذلك لا يصلح أن يقال أن الكل يحرك الجزء، ولا أن الجزء يحرك الكل.

وإنما لم يصلح هذا ولا ذاك لأن أي افتراض من هذه الافتراضات سيترتب عليه أن الشيء الواحد يكون محركًا ومتحركًا معًا بنوع واحد من الحركة وهذا خطأ لأن المفترض منطقيًا أن حركة المحرك تختلف عن حركة المتحرك وأن الشيء الواحد يكون بالقوة وبالفعل في وقت واحد وهذا أيضًا خطأ منطقي لأنه إن كان بالقوة امتنع واستحال أن يكون بالفعل وإذا كان بالفعل امتنع واستحال أن يكون بالقوة.

فضلاً عن هذا فإنه في هذه الصور الخاطئة "أن الكل لا يكون حينئذ هو المحرك ذاته أوَّلا بل متحركًا بسبب الجزء"[١].

فإذا لم تصلح هذه الصور لوجود محرك أول فيمكن تصور أن هذا المحرك لذاته لابد وأن يكون جزء منه غير متحرك لكنه يحرك الجزء الآخر، إلا أن أرسطو كان له منهج آخر لهذه القضية فما هو؟ أنه رأي أن الحيوانات تحرك ذاتها وأن الجزء المحرك لهذه الحيوانات هو النفس الحيوانية، هذه النفس التي تحرك الحيوان غير متحركة بذاتها وإنما هي تتحرك بالعرض لكنه أي أرسطو رأى[٢] "أن الجزء المحرك في المحرك لذاته الأول ليس متحركًا بذاته ولا بالعرض"[٣]، فقال: إن الأشياء التي تحرك ذاتها والمشهودة عندنا أي الحيوانات التي نشاهدها هي متحركة بالعرض أي تتحرك بسبب ما يعرض

---

(١) مجموعة الردود، ص ٥٩.

(٢) الرؤية هنا ليست رؤية بصرية ولكنها رؤية فكرية.

(٣) مجموعة الردود، ص٥٩.

لها بسبب أنها تفسد وتموت وتفنى وهذا يقتضي ضرورة أن يكون مرجعها "إلى شيء أول محرك لذاته يكون سرمديا"[١] وعلى هذا لابد للذي يحرك ذاته الكائن الحي من محرك له لا يتحرك بالذات ولا بالعرض.

لماذا لابد من محرك سرمدي ؟

الجواب: أن أرسطو أوجب أن الحركة سرمدية وهذا يلزم عليه وجوبًا أن تكون المحركات لذاتها الكائنة والفاسدة دائمة الاستمرار في تولدها وتكونها، هذا التولد والتكون الدائم والمستمر لا يصح أن تكون علته واحد من هذه المحركات لذاتها لعدم دوام بقائها، كما لا يجوز أن تكون علته جملة هذه المحركات لذاتها لأنها حينئذ تكون غير متناهية ولأنها لا يمكن أن توجد معًا.

فإذا لم يصح هذا ولا ذاك أن يكون علة لهذا التولد والتكون المستمر لزم أن يوجد شيء محرك بذاته دائم البقاء والاستمرار يكون هو العلة لدوام الكون في هذه الأشياء السفلية المحركة لذاتها، وبهذا يكون محرك هذا المحرك أي المحرك لذاته غير متحرك لا بذاته ولا بالعرض.

ويتبين لك هذا المحرك السرمدي في المحرك لذاته، أن بعض المحركات لذاتها تأخذ بالتحرك على طريق الحدوث والتجرد، فما سبب هذه الحركة ؟

لا يجوز أن يكون هذا بسبب أن الحيوان متحرك بذاته لأن الذي يحرك ذاته بهذه الحركة حركة الحدوث والتجدد إنما يتحرك بطريق العرض ولما كان

---

(١) مجموعة الردود، ص ٥٩، والسرمدي هو الذي لا أول له ولا آخر. التعريفات للجرجاني، ص ١١٨، لكنه يفهم من عرض توما لرأي أرسطو في الحركة أن الحركة السرمدية هي الحركة الدائمة والمستمرة، وهذا يعني أنها لا أول لها ولا آخر.

لا يجوز أن تكون الحركة بطريق العرض لزم أن تكون عن طريق هذا المحرك السرمدي وهذا هو ما عبر عنه توما بقوله "ولكن المحرك الأول الذي يحرك ذاته إنما هو يتحرك دائمًا... فبقي إذا أن المحرك الأول الذي يحرك ذاته إنما يتحرك عن محرك لا يُحَرَّك لا بذاته ولا بطريق العرض"[(١)].

ولما كان يمكن أن يفهم من أن هذا المحرك الذي لا يتحرك لا بذاته ولا بالعرض هو جزء من الأشياء المحركة ذاتها أي أنه من طبيعة الأشياء المحركة لذاتها وفرد من أفرادها فإن أرسطو حاول التوصل من هذا المحرك الذي هو جزء المحرك لذاته أي أنه أحد أفراد المحركات لذاتها إلى محرك آخر مفارق من كل وجه فلا يكون فردًا أو عنصرًا أو جزء من مجموعة معينة هذا المحرك المفارق للمحركات كلها من جميع الوجوه هو الله[(٢)].

أما كيف توصل أرسطو ومن بعده توما إلى هذا المحرك المفارق من كل وجه فهو أن كل ما يحرك ذاته إنما يتحرك بسبب اشتياقه لشيء مشتهى أي بسبب تطلعه إلى شيء أفضل منه فالمحرك الذي هو جزء أي فرد المحرك لذاته إنما يحرك بسبب اشتياقه لشيء مُشتهى أفضل منه في التحريك، هذا المحرك الذي يتطلع أي يشتهي إلى ما هو أفضل يكون محركًا ومتحركًا أما الشيء الذي يتطلع إليه أو يشتاق إليه فهو الأفضل وتتمثل أفضليته في أنه يحرِّك ولا يتحرك البتة لذلك كان لابد من الوصول إلى هذا المحرك الأفضل وهو المحرك غير المتحرك "فإذا لابد من وجود محرك أول مفارق لا يكون

(١) مجموعة الردود، ص ٦١.
(٢) السابق، ص ٦١، ٦٢.

متحركًا البتة وهو الله"(١).

وهذه هي نظرية العقول التي اشتهرت بها الفلسفة اليونانية وبخاصة فلسفة أرسطو ولكن نلاحظ في هذا العرض والتحليل أن توما كان رجل كنيسة لذلك استخدم كلمة المحركات لذاتها بدلاً من العقول ولفظ "الله" بدلاً من المحرك الأول المفارق، وهذه صورة من صور العلاقة بين الدين والفلسفة التي كان يتم فيها التوفيق بينهما.

كما يلاحظ في ترتيب توما هذه المحركات أنه سار على طريقة الترتيب التصاعدي حيث هذا المحرك يتطلع أو يشتاق إلى ما هو أعلى منه وهذا يتطلع إلى ما هو أعلى منه إلى أن وصل توما في هذا الترتيب إلى أعلى المحركات الذي ليس له شبيه في هذه المحركات وهو الله.

وقد اعترض توما على هذا الاستدلال:

إذا دققنا النظر والفكر في هذا الاستدلال سنجد أنه استدلال يعتمد على أن العالم قديم كما هو رأي بعض الفلاسفة بناء على أن الحركة عند أرسطو قديمة(٢) وأساس الحركة هو العالم إذًا العالم قديم والحركة قديمة، ولكن الكاثوليكية لا تأخذ بهذا ولا تعترف به وترى أن هذا كلام باطل وأن الأفضل منه هو القول بحدوث العالم فهذا أفضل طريق وأقواه لإثبات وجود الله أما الإسناد إلى القول بقدم العالم فلن يتضح لنا وجود الله وضوحًا كافيًا مع هذا القدم(٣).

---

(١) مجموعة الردود، ص ٦٢.
(٢) السابق، ص ٦٢.
(٣) السابق، ص ٦٢ بتصرف.

وبناءً على هذا الرأي الذي يقول به توما وهو حدوث العالم يكون متمشيًا مع ما يقول به المسلمين؛ لأن القول بقدم العالم لقى (من المسلمين معارضة شديدة سواء كان المفكرون الإسلاميون من الفلاسفة مثل الكندي أو المتكلمين؛ لأن نظرية الإسلام في خلق العالم صريحة واضحة، وقد انبرى الكندي وهو الذي عاصر المترجمين وشارك في نقل الفلسفة اليونانية ... للرد على هذه النظرية - نظرية قدم العالم - بطريقة تختلف عن طريقة المتكلمين دفاعًا عن العقيدة الإسلامية، وقد رفع الكندي لواء المنهج الرياضي، وأثبت بالبراهين الرياضية بطلان لا تناهي العالم، والمنهج الرياضي يعتمد على البديهيات أولًا ثم على مبادئ فطرية في العقل ثانيًا، ثم على بعض مسلمات وبراهين رياضية استقرت عند علماء الرياضة ثالثًا، يعتمد الكندي على بديهيتين أساسيتين:

أ- بديهية التساوي.

ب- بديهية الكل أعظم من الجزء، ويعتمد على مبدأ عدم التناقض، ثم على برهان الخلف ... وبديهيات الكندي التي اعتمد عليها ست وهي:

(١) أن كل الأجرام التي ليس منها شيء أعظم من شيء متساوية.

(٢) والمتساوية أبعاد ما بين نهاياتها واحدة بالفعل والقوة.

(٣) وذو النهاية لا نهاية له.

(٤) وكل الأجرام المتساوية إذا زيد على واحد منها جرم كان أعظمها، وكان أعظم مما كان من قبل أن يزاد عليه ذلك الجرم.

(٥) وكل جرمين متناهي العظم إذا جمعا، كان الجرم الكائن عنهما متناهي العظم، وهذا واجب في كل عظم، وكل ذي عظم.

(٦) وأن الأصغر من كل شيئين متجانسين، يعد الأعظم منهما أو يعد بعضه)[١].

من خلال هذه البديهيات الست أثبت الكندي حدوث العالم رابطًا بين الجرم والحركة والزمان وعدم الفصل بينهما، وهذه هي الحيلة التي لجأ إليها كما يذكر ذلك الأهواني حيث يقول: (الحيلة التي لجأ الكندي إليها هي عدم الفصل بين الجرم والحركة والزمان، ولما كان الزمان كمية – أي يقبل المساواة واللامساواة، ويخضع للقياس – فهو متناه بالفعل مثل سائر الكميات، ولكن هذه الحجة ليست في نظره كافية، ولذلك عززها بأن أدمج الزمان في الجرم، وجعل الجرم متحركًا، وافترض للزمان بداية أولى متناهية، وبذلك يكون المسلمات التي افترضها ثلاث:

(١) الزمان كمية، وكل كمية فهي متناهية.

(٢) الزمان ذو أول متناه.

(٣) الزمان محمول في الجرم فهو متناه.

أما حقيقة الزمان فإنه مدة تعدها الحركة، فإن كانت حركة كان زمان، فإن لم تكن حركة لم يكن زمان، معنى ذلك أن الزمان متصل اتصالًا ضروريًا بالحركة ويلزم عنها، ولما كانت الحركة موجودة بالفعل، فالزمان موجود بالفعل أيضًا)[٢].

في نفس الوقت القول بحدوث العالم والحركة يلزم عليه وجوبًا أن تكون هناك علة أوجدت العالم والحركة لأنه "ليس شيء يخرج نفسه من القوة إلى

---

(١) الكندي فيلسوف العرب، د/ أحمد فؤاد الأهواني، ص ١٤٥: ١٤٧، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، بدون.

(٢) الكندي فيلسوف العرب، ص ١٥٤.

الفعل ومن اللاوجود إلى الوجود"[1].

البرهان الثاني لإثبات وجود الله:

أقام توما – ومن قبله أرسطو – هذا البرهان على امتناع التسلسل في العلل الفاعلة، ذلك أن العلل الفاعلة في تناسقها وترتيبها يجب أن تنتهي إلى علة واحدة هي الفاعلة وهذه هي التي تسمى عند توما "الله".

فالعلل الفاعلة مرتبة على نظام معين تكون فيه علة أولى فاعلة في علل أواسط – واحدة أو كثيرة مثل أ علة لـ ب، ب علة لـ ج، و ج علة لـ د وهكذا – والأواسط علة للطرف الأخير.

فبهذا النسق ولهذا الترتيب إن رفعت العلة الأولى – أي لم تعمل أو لم توجد – رفعت العلل الأواسط فلا تعمل، وكذلك الطرف الأخير فلا يكون له وجود ومثال هذا أن يكون معنا بعض قطع من الحديد أو النحاس مرقمة من رقم واحد إلى رقم (٥) ثم يتم توصيل تيار كهربائي بأول قطعة فهذه تنقل التيار إلى القطعة الثانية ومن الثانية إلى الثالثة وهكذا إلى الطرف الأخير.

فلو فرض أن هذه العلل ممتدة في التسلسل إلى غير نهاية فإن كل علة ستكون علة وسطى لما بعدها ولن نصل إلى علة أولى، وإذا لم توجد العلة الأولى لن توجد العلل الأواسط وهذا واضح الفساد والبطلان في فرض التسلسل في العلل الفاعلة لذلك لزم وضع علة أولى فاعلة وهذه هي ما يسميه توما "الله".

وهكذا استخدم توما الفلسفة لإثبات حقيقة دينية أو ما سماه بالحقائق الإيمانية وكأنه يقول: لا تعارض بين الدين والفلسفة ولا بين الفلسفة والدين

---

(١) مجموعة الردود، ص ٦٢.

فكلاهما خادم للحقيقة، وكلاهما يبحث عن الحق لإحقاقه وإبطال الباطل.

وهذا ما صرح به فلاسفة المسلمين من قبله حينما قالوا إنه يوجد (اتفاق بين الدين والفلسفة من جهة الموضوع، ومن جهة الغاية، بل ومن جهة المنهج.

(١) من جهة الموضوع كلاهما يطلب الحق والخير.

(٢) من جهة الغاية كلاهما يسلك طريق البرهان، ولكن الدين ينفرد قبل ذلك باتباع طريق السمع والخبر أي ما نزلت به الشريعة على ألسنة الأنبياء والرسل – عليهم السلام – ....، فالفلسفة والدين متفقان موضوعًا؛ لأن موضوع الفلسفة معرفة الله ووحدانية ومعرفة الفضائل النافعة لاتباعها، والرذائل الضارة لاجتنابها، وهذا هما موضوع الدين.

وهما متفقان منهجًا؛ لأن الدين حتى إذا فرضنا أنه لا يسك العلة والبرهان وهما الطريق الفلسفي فمن واجبه إذا أنكر الفلسفة أن يرهن على هذا الإنكار وعندئذ يسير في طريق البرهان ....، بمعنى أنه باضطرار يجب على اللسنة المضادين لها اقتناؤها وذلك أنهم لا يخلون من أن يقولوا أن اقتناؤها يجب أو لا يجب فإن قالوا أنه يجب وجب عليهم طلبها وإن قالوا أنها لا تجب، وجب عليهم أن يحصروا علة ذلك، وأن يعطوا على ذلك برهانًا، وإعطاء العلة والبرهان من قنية علم الأشياء بحقائقها فواجب إذن طلب هذه القنية بألسنهم والتمسك بها اضطرارًا عليهم ....، وهكذا ظلت مسألة التوفيق بين الدين والفلسفة على رأس المسائل التي تميزت بها الفلسفة الإسلامية وشغلت بال الفلاسفة ... والكندي أول من فتح هذا الباب ورسم هذا الطريق وفطن إلى هذه المشكلة وأحسن تصويرها) فهو (الذي وجهها – الفلسفة –

في سبيل التوفيق بينها وبين الدين ....، فصارت في سبيلها على أيدي تلاميذه ومن أخذ عن تلاميذه)[١].

ثم جاء من بعده ابن رشد وهو أشهر من كتب في هذا الموضوع وقال: (.. إذا كنا نعتقد معشر المسلمين أن شريعتنا الإلهية حق، وأنها التي نبهت على هذه السعادة ودعت إليها التي هي المعرفة بالله - جل وعز - وبمخلوقاته، وأن ذلك متقرر عند كل مسلم من الطريق الذي اقتضته جبلته وطبيعته من التصديق، وذلك أن طباع الناس متفاضلة في التصديق، فمنهم من يصدق بالبرهان، ومنهم من يصدق بالأقاويل الجدلية، تصديق صاحب البرهان بالبرهان، إذ ليس في طباعه أكثر من ذلك، ومنهم من يصدق بالأقاويل الخطابية كتصديق صاحب البرهان بالأقاويل البرهانية، وذلك أنه لما كانت شريعتنا، هذه الإلهية قد دعت الناس من هذه الطرق الثلاث، عم التصديق بها كل إنسان إلا من جحدها عناداً بلسانه، أو لم تتقرر عنده طرق الدعاء فيها إلى الله، لإغفاله ذلك من نفسه، ولذلك خُصَّ عليه الصلاة والسلام بالبعث إلى الأحمر والأسود، أعني لِتَضَمُّن شريعته طرق الدعاء إلى الله تعالى، وذلك صريح في قوله تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[٢].

وإذا كانت هذه الشريعة حقًا، وداعية إلى النظر المؤدي إلى

---

(١) الكندي فيلسوف العرب، د/ أحمد فؤاد الأهواني ص ٢٨٠: ٢٨٢، فيلسوف العرب والمعلم الثاني، الشيخ/ مصطفى عبد الرازق، ص ٣٤، ٣٥، الناشر: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة.

(٢) سورة النحل آية: ١٢٥.

معرفة الحق فإنا معشر المسلمين نعلم على القطع أنه لا يؤدي النظر البرهاني إلى مخالفة ما ورد به الشرع، فإن الحق لا يضاد الحق بل يوافقه ويشهد له)[١].

برهان ثالث:

يوجد في الكون أشياء غاية في الخفة كما بلغت الغاية القصوى في الموجودية وهي بذلك أفضل موجود، ولما كان يمكن أننا نجد باطلاً أشد بطلانًا من باطل آخر فإنه يمكن وجود حق أشد حقية من حق آخر أو وجود حق أكثر حقًا من الآخر وبناء على هذا وذاك فإنه يمكن استنادًا إلى هذين الدليلين أن يوجد شيء أعلى موجود وهو الله.

والمعنى أن الموجودات أنواع وأصناف وليست كل الأنواع أو الأصناف على مرتبة واحدة وإنما هناك الأعلى درجة والأقل وكذلك المعاني والصفات ليست على مرتبة واحدة وإنما فيها الأعلى والأقل والأوسط، وهذا الوضع من ترتيب الدرجات ينطبق على الموجودات فمنها الأعلى والأقل والأوسط وعليه فإنه يمكن أن يوجد شيء هو أفضل موجود وهو الله[٢].

---

(١) فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، تأليف: أبو الوليد بن رشد، ص ٣١، ٣٢، دراسة وتحقيق: د/ محمد عمارة، ط: الثانية ١٩٨٣م، دار المعارف، ونسخة أخرى – وهي: فلسفة ابن رشد"، فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال.

الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة، تأليف: ابن رشد، ص ١٥، مراجعة: مصطفى عبدالجواد عمران، ط ٣، ١٣٨٨هـ ١٩٦٨م، المكتبة المحمودية التجارية – القاهرة.

(٢) مجموعة الردود، ص ٦٤، ٦٥.

البرهان الرابع:

وقد نسب توما هذا البرهان إلى الدمشقي[1]، وهو أحد شراح أرسطو قد أشار إلى هذا الدليل وهو يقوم على بديع النظام في الكون وحسن الموجودات المادية وغير المادية وترابط الكل مع بعضها البعض بحيث لا يوجد بينها تنافر أو تضارب وأن هذا كله لا يمكن أن يكون قد وجد اتفاقًا دائمًا أو صدفة، ولا حتى في الأكثرية الموجودة دون وجود مدبر واحد يدبر شئون هذه كلها جماعة وأفراد هادفًا إلى غاية واحدة معينة، بل أقوى من هذا عناية وتدبيرًا حيث "ترى في العالم أشياء متخالفة الطبائع تتألف في نظام واحد لا تألفًا نادرًا وعلى سبيل الاتفاق بل تألفًا دائمًا وفي الأكثرية فإذا لابد من وجود شيء تدبر عنايته العالم وهذا نسميه الله"[2].

وهذا ما صرح به علماء الإسلام.

يقول الإمام أبو الحسن الأشعري: **(إن سأل سائل فقال: ما الدليل على أن للخلق صانعًا صنعه ومدبرًا دبره قيل له: الدليل على ذلك أن الإنسان**

---

(١) الدمشقي: **هو يوحنا منصور بن سرجون الدمشقي، ولد عام ٦٧٦م في (دمشق) خلال حكم الدولة الأموية من عائلة مسيحية نافذة إذ كان والده يعمل في بلاط الخلافة الأموية، وكذلك كان يعمل جده رئيسًا لديوان الجباية المالية فيها وقد شغل يوحنا الدمشقي نفسه هذه الوظيفة فترة من الزمن، تميز بمؤلفاته اللاهوتية الفلسفية العديد ودفاعه الشديد عن العقائد المسيحية، وكان يؤلف باليونانية مع استخدامه السريانية في حياته اليومية مع احسانه العربية، وقد شكلت مؤلفاته مرجعًا مهمًا لجميع لاهوتي القرون الوسطى حتى إن توما الإكويني يستشهد به في مؤلفاته. يراجع، ويكيبديا الموسوعة الحرة على شبكة الإنترنت.**

(٢) مجموعة الردود، ص ٦٥.

الذي هو في غاية الكمال والتمام، كان نطفة ثم علقة ثم لحمًا ودمًا وعظمًا، وقد علما أنه لم ينقل نفسه من حال إلى حال؛ لأنا نراه في حال كمال قوته وتمام عقله لا يقدر أن يحدث لنفسه سمعًا ولا بصرًا، ولا أن يخلق لنفسه جارحة، يدل ذلك على أنه في حال ضعفه ونقصانه عن فعل ذلك أعجز، لأن ما قدر عليه في حال النقصان عنه أعجز، ورأيناه طفلًا ثم شابًا ثم كهلًا ثم شيخًا، وقد علمنا أنه لم ينقل نفسه من حال الشباب إلى حال الكبر والهرم؛ لأن الإنسان لو جهد أن يزيل عن نفسه الكبر والهرم ويردها إلى حال الشباب لم يمكنه ذلك فدل ما وصفنا على أنه ليس هو الذي ينقل نفسه في هذه الأحوال، وأن له ناقلًا نقله من حال إلى حال ودبره على ما هو عليه، لأنه لا يجوز انتقاله من حال إلى حال بغير ناقل ولا مدبر مما يبين ذلك أن القطن لا يجوز أن يتحول غزلًا مفتولًا ثم ثوبًا منسوجًا بغير ناسج ولا صانع ولا مدبر)[1].

ويقول الجاحظ في هذا السياق أيضًا: (فأول العبر بهيئة هذا العالم أجزائه ونظمها على ما هي عليه، فإنك إذا تأملت العالم بفكرك وجدته كالبيت المبني المعد فيه جميع عتاده، السماء مرفوعة كالسقف، والأرض ممدودة كالبساط، والنجوم منضودة كالمصابيح، والجواهر مخزونة في معادنها كالزخائر، وكل شيء منها لشأنه وما يراد به، والإنسان كالمالك للبيت المخول لما فيه، مهيأ لمآربه، وصنوف الحيوانات مصروفة في مصالحه، ففي هذا دلالة واضحة على أن العالم مخلوق بتدبير وتقدير ونظام، وأن الخالق واحد هو الذي ألفه

(١) كتاب اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع للإمام أبي الحسن الأشعري، ص ١٧، ١٨، تحقيق وتقويم: د/ حمودة غرابة، مطبعة مصر، شركة مساهمة مصرية سنة ١٩٥٥م.

ونظم بعضه إلى بعض) [١].

كما جاء أيضًا في رسالة التوحيد للإمام محمد عبده حيث يقول: (إن نظام الكون ومصالحه العظمى إنما تقررت له بحكم أنه أثر الوجود الواجب الذي هو أكمل الوجودات وأرفعها، فالكمال في الكون إنما هو تابع لكمال المكون وإتقان الإبداع إنما هو مظهر لسمو مرتبة المبدع، وبهذا الوجود البالغ أعلى غايات النظام تعلق العلم الشامل والإرادة المطلقة فصدر ويصدر على هذا النمط الرفيع. يقول المولى – ﷻ –: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ ﴾[٢]، وهذا معنى قولهم إن أفعاله لا تعلل بالأغراض، ولكنها تنزه عن العبث، ويستحيل أن تخلو من الحكم وإن خفي شيء من حكمتها عن الأنظار)[٣].

وإذا كان توما قد تحدث عن هذه الحقيقة وهو محق في ذلك فإن هذه الحقيقة أيضًا قد أرشد إليها القرآن الكريم وحث عليها منذ ما يقرب من خمسة عشر قرنًا من الزمان حيث يقول المولى – ﷻ –: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[٤].

---

(١) الدلائل والاعتبار للجاحظ، ص ٥، دار الندوة الإسلامية، بيروت – لبنان ١٩٨٨م.
(٢) سورة المؤمنون آية رقم: ١١٥.
(٣) رسالة التوحيد للإمام محمد عبده، ص ٣٥.
(٤) سورة البقرة آية رقم: ١٦٤.

والآيات القرآنية في هذا الشأن كثيرة كما أن العلم الحديث أيضًا قد أثبت هذه الحقيقة من خلال الأبحاث والاكتشافات العلمية ففي كل يوم، بل في كل لحظة ومع كل بحث تظهر الأدلة تلو الأدلة على أنه لا قيام لهذا الكون إلا بوجود خالق حكيم مدبر يسيطر على هذا الكون كله.

الفصل الثاني عشر
في أنه لا بد لمعرفة الله من اتخاذ طريقة السلب(١)

للوصول إلى معرفة الله ثلاثة طرق: طريق العلية وطريق الأفضلية وطريق السلب وقد رأى توما أن طريق السلب يعطي معرفة بالله عالية بل هو الذي يوصل إلى كمال المعرفة؛ وذلك لأن (اتخاذ السلب في وصف الله كان مذهبًا قصد به صيانة العموم له؛ لأن من خصائص العموم في التفلسف القديم نهاية الكمال ونهاية الوجود الحقيقي) (٢).

لذلك اقترح توما هذا الطريق واتخذه وسيلة لسلب ما لا يليق بذات الله من الصفات والأفعال وهي طريقة سبق أن سار عليها المعتزلة.

---

(١) السلب هو: الأخذ والنزع كما عبر عنه العلماء فقد جاء في لسان العرب: سلبه الشيء يسلبه سَلْبًا وسَلَبًا واستلبه إياه، وهو ما يأخذه أحد القرينين في الحرب من قرنِهِ مما يكون عليه ومعه من ثياب وسلاح ودابة.
وهو أيضًا انتزاع النسبة، والسلب مقابل الإيجاب، والإيجاب والسلب قد يراد بهما الثبوت واللاثبوت، فثبوت شيء لشيء إيجاب وانتفاؤه عنه سلب، والسلب إما عائد إلى الذات أو إلى الصفات أو إلى الأفعال.
يراجع في ذلك: لسان العرب لابن منظور، م١، ج ٢٣ ص ٢٠٥٧ باب السين، تحقيق: عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، التعريفات للجرجاني، ٢٠، باب السين، المعجم الفلسفي، د/ عبد المنعم الحنفي، ص ١٤٧، باختصار، ط: الأولى ١٤١٠هـ ١٩٩٠م، الناشر: الدار الشرقية.

(٢) الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي، د/ محمد البهي، ص ١٠٩، هامش ٢، ط: السادسة ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م، دار غريب للطباعة، القاهرة، الناشر: مكتبة وهبة – القاهرة.

فقد قال "النظام"[١] وهو من أبرز علماء المعتزلة: (معنى قولي عالم إثبات ذاته ونفي الجهل عنه، ومعنى قولي قادر إثبات ذاته ونفي العجز عنه، ومعنى قولي حي، إثبات ذاته ونفي الموت عنه وكذلك في سائر صفات الذات على هذا الترتيب)[٢].

أما الهدف الذي يرمي إليه توما من اتباع هذا الوسيلة فهو **"**البحث عن جوهر الله**"**[٣] ذلك أن البحث عن جوهر الله له طريقان:

١- منهج الإثبات الذي يعطينا إجابة عن السؤال الذي يقول: "ما هو الله" فتقول: إنه الخالق أو مبدع هذا الكون أو أنه كذا وكذا، وهذا الطريق محفوف بالمخاطر لأن معرفة حقيقة أي شيء أو جوهرة لا بد في هذه المعرفة أن يتصور العقل هذه الحقيقة والعقل البشري لا يستطيع إدراك حقيقة الله أو ماهيته وجوهره إذ أن الله لا يحصره حد، وتصوره يفوق كل ما يتصوره عقلنا لذلك كان الأنسب للوصول إلى هذه المعرفة هو أن نسلك الطريق الثاني وهو طريق السلب لأنه "كلما تيسر لعقلنا الإكثار

---

(١) النظام هو: أبو إسحاق إبراهيم بن يسار المعروف بالنظام، وهو ابن أخت أبي هذيل العلاف، وعنه أخذ الاعتزال، ويعد من أذكياء المعتزلة، توفى سنة ٢٣١هـ.
يراجع في ذلك: الفرق بين الفرق وبيان الفرق الناجية منهم للإمام أبي منصور عبدالقاهر بن طاهر بن محمد بن عبدالله التميمي، ص ١١٣، باختصار، منشورات: دار الآفاق الجديدة، بيروت – لبنان، ط: الثالثة، بدون، مقالات الإسلاميين للأشعري، ج ١ ص، ٢٤٧، هامش ١.

(٢) مقالات الإسلاميين للأشعري، ج١، ص ٢٤٧.

(٣) مجموعة الردود، ص ٦٦.

من السلوب عنه ازددنا تقربًا من معرفته"[١].

٢- منهج السلب: يرى توما أفضلية الطريق الثاني وهو طريق السلب عن الطريق الأول وهو طريق الإثبات، لأننا حين نريد معرفة شيء من الأشياء علينا أن نميزه بمعرفة الأمور التي تميزه عن الأشياء الأخرى وهذه مميزات موجبة كأن نقول عن إنسان إنه كريم أو إنه أمين وهكذا كلما أضفنا مميزات موجبة أي توجب شيئًا لهذا الإنسان ازددنا معرفة وقربًا وكمالاً في معرفة جوهر هذا الشيء، لكنه لما كان لا يمكن معرفة جوهر "الله" وحقيقته لعلوها وكونها فوق تصور أي عقل بشري كان غير ممكن للإنسان أن يعرف الله معرفة كاملة بطريق "الفصول الموجبة"[٢] أي المميزات الواجبة لله فكان لابد في معرفة هذا التميز الذي يتميز به "الله" عن سائر الموجودات هو طريق الفصول السلبية.

وقد ضرب توما مثالاً على هذا بأننا حين نقول إن الله ليس بعرض فإننا بهذا نكون قد ميزناه عن سائر الأعراض، وحين نقول إنه ليس بجسم فإننا بهذا نكون قد ميزناه عن سائر الجواهر[٣]، وهكذا، وشيئًا فشيئًا وسلبًا بعد سلب يتميز الله تدريجيًا بهذه السلوب عن كل ما هو دونه وبهذا نكون قد وضعنا اعتبارًا خاصًا لله هو أننا نعرف أنه متميز عن الجميع.

ويذكرنا توما بأنه لا يكفي ما ذكرناه من سلوب في معرفة "الله" معرفة كاملة لذلك يجب إضافة ما ورد من سلب في فصول سابقة مثل ما وضحه

---

(١) مجموعة الردود، ص ٦٦.

(٢) السابق، ص ٦٦.

(٣) السابق، ص ٦٧.

سابقًا من أن "الله" لا يلحقه تغير البتة، وهذه حقيقة يؤيدها الكتاب المقدس حيث جاء في العهد القديم "أنا الرب لا أتغير"[1] وكما يقول الكتاب المقدس العهد الجديد عن الله "الذي ليس عنده تحول ولا ظل دوران"[2]، وأيضًا جاء في سفر العدد العهد القديم: "ليس الله إنسانًا فيكذب، ولا ابن إنسان فيندم"[3].

ويلاحظ في عرض توما لطريق معرفة الله – ﷻ – عدة ملاحظات:

الأولى: **أنه أورد هذه الشواهد من الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد ليثبت أن النصوص الدينية الوحي الإلهي سلك طريق السلب في بيان كيفية معرفة الله.**

الثانية: **أن هذه النصوص التي استدل بها توما وأوردها في كتابه (مجموعة الردود على الخوارج – فلاسفة المسلمين) تبطل معتقده بأن الله ثالوثًا وواحدًا؛ لأن ما كان غير الله فهو يتحول ويتغير.**

الثالثة: **أنه استعان بالفلسفة لإقرار حقيقة إيمانية واستعان بالدين لإثبات صحة استخدام الفلسفة والاستعانة بها لإقرار الأحكام الدينة وهذا تأييد من توما على أنه لا تعارض بين الدين والفلسفة تمشيًا مع من سبقه من فلاسفة المسلمين كما سبقت الإشارة إلى ذلك.**

---

(١) ملاخي الإصحاح الثالث: عد ٦ ص ١٠٦٦، الكتاب المقدس، إصدار دار الكتاب المقدس في العالم العربي.

(٢) رسالة يعقوب: الإصحاح الأول، عد ١٧ الكتاب (العهد الجديد).

(٣) سفر العدد الإصحاح ٢٣، عد ١٩، والنص في الكتاب المقدس هو: "ليس الله إنسانًا فيكذب ولا ابن إنسان فيندم".

الفصل الثالث عشر
في أن الله سرمدي

بعد أن بين توما طريق معرفة الإنسان بالله بين أنه لما كانت المعارف متعددة لزم أن يكون أول ما يجب أن نعرفه عن "الله": (أنه سرمدي)[1].

والسرمدي: كما جاء في التعريفات للجرجاني: ما لا أول له ولا آخر[2]، وهو ما عبر عنه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ ﴾[3] وقد فسرها العلماء بقولهم هو الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية.

فقد جاء في تفسير الكشاف للزمخشري عند تفسير قوله تعالى: ﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ ﴾ حيث قال: (هو الأول): هو القديم الذي كان قبل كل شيء، (والآخر): الذي بقى بعد هلاك كل شيء)[4].

كما جاء أيضًا في مجمع البيان للطبرسي وهو في معرض تفسيره لقول المولى – ﷻ –: ﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ ﴾: (أي أول الموجودات وتحقيقه أنه سابق لجميع الموجودات بما لا يتناهى من تقدير الأوقات، لأنه قديم وما عداه محدث والقديم يسبق المحدث بما لا يتناهى من تقرير الأوقات ....، "والآخر" بعد فناء كل شيء؛ لأنه يفني الأجسام كلها وما فيها من الأعراض ويبقى وحده ... "الآخر" بعد كل شيء بلا انتهاء فهو الكائن لم يزل والباقي لا يزال)[5].

---

(١) مجموعة الردود، ص ٦٨.
(٢) التعريفات للجرجاني، ص ١١٨، باب السين.
(٣) سورة الحديد آية رقم: ٣.
(٤) الكشاف للزمخشري: ٦٣/٤.
(٥) مجمع البيان للطبرسي: ٢٩٥/٩.

وفي هذا السياق يقول الأمام الجويني: (اعلموا أعصمكم الله أن أرباب الألباب اتفقوا على أن ما ثبت له القدم استحال عليه العدم)[١].

هذه النصوص التي ذكرها العلماء والتي تفيد أن المولى – ﷻ – أول الموجودات، سابق عليها ثابت له وجوب القدم محال عليه الحدوث ولم يزل ولا يزال وهذا هو تفسير قول المولى – ﷻ – ﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ ﴾[٢] الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية.

أما في اللغة اللاتينية – كما يقول المحقق – فتعني عندهم "الأزلي والأبدي" وكأن توما يريد أن يقول بطريقة السلب التي فضلها كوسيلة لمعرفة الله "الله سرمدي" أي أنه أزلي وأبدي وبالتالي الله ليس له بداية وليس له نهاية، والذي ليس له بداية هو الأزلي والذي ليس له نهاية هو الأبدى.

وقد ركز توما في بيان أن الله سرمدي على منهجه الذي فضله وهو منهج السلب حيث قال: ومن هذا – أي ومن هذا المنهج أو من هذا الطريق "طريق السلب يتضح – أن الله أزلي أبدي"[٣].

ولما كان يمكن أن تكون هذه القضية، قضية أن الله أزلي وأبدي" محل إنكار واستنكار من بعض الناس فقد وضع توما الأدلة العقلية التي تثبت هذه الحقيقة وتؤكدها، وكان من هذه الأدلة:

الدليل الأول:

بأن الله سرمدى وهذا يقول فيه توما: "كل ما يحدث وجوده أو ينعدم

---

(١) الشامل في أصول الدين لإمام الحرمين الجويني، ص ٨٩، تحقيق: هلموت كلوبفر، الناشر، دار العرب للبستاني، القاهرة

(٢) سورة الحديد آية رقم: ٣.

(٣) مجموعة الردود، ص ٦٨.

فإنما يحصل فيه ذلك بالحركة أو بالتغير وقد تبين أن الله غير متغير البته فإذا هو أزلي لا بداية له ولا نهاية" [1].

ولما كان هذا الاستدلال مختصرًا اختصارًا يصعب معه فهم الاستدلال بيسر وسهولة فإنه تيسيرًا على القارئ أضع هذا التوضيح لدليل توما فأقول:

ما يوجد وينعدم يكون متغيرًا، وما كان متغيرًا تكون له بداية ونهاية لكن الله غير متغير لذلك ليست له بداية ولا نهاية، وما كان كذلك فهو سرمدي أي أزلي، وبتوضيح أكثر:

ما يوجد وينعدم فإنما يكون هذا بالحركة والتغير، وما يكون بالحركة والتغير تكون له بداية ونهاية لكن الله غير متغير، وما كان غير متغير ليست له بداية ولا نهاية، وما ليست له بداية ولا نهاية يكون سرمديًا، إذن الله سرمدي أي أزلي.

وقد افترض شارح هذا الكتاب أنه يمكن أن يعترض معترض بأن هذا الاستدلال ساقط بكون العالم لم يوجد عن طريق الحركة ولكن عن طريق الخلق[2]، والخلق ليس بحركة، حينئذ يقال لهذا المعترض إن المقصود بالحركة في هذا الاستدلال الانتقال إلى حالة مغايرة لما كان عليه الشيء سابقًا أي الانتقال من اللاوجود إلى الوجود أو الانتقال من العدم إلى الوجود دون نظر إلى اشتراط سبق وجود المحل أول عدم اشتراط سبق المحل، والذي يعرف بالحركة الطبيعية، وعليه فتصح نسبة الحركة والتغيير باتساع معناهما[3].

---

(١) مجموعة الردود، ص ٦٨، ٦٩.

(٢) السابق، هامش ص ٦٩.

(٣) السابق، ص ٦٩، هامش ١.

الدليل الثاني لإثبات أن الله سرمدي:

يتسائل توما فيقول: ما هو الزمان؟ ثم يجيب فيقول: الزمان هو عدد حركات أي شيء فلا زمان إلا بالحركة ولا حركة بدون تغير ولما كان الله غير متغير لم يكن متحركًا، ولما كان غير متحرك لم يكن مقدرًا بالزمان.

وعلى هذا لا يصح أن ينظر إلى الله على أنه متقدم أو متأخر لأن التقدم والتأخر مبني على الزمان، فإذا لم يوجد زمان لا يوجد تقدم ولا تأخر وهذا هو السرمدي.

وأيضًا ليس لله وجود بعد اللاوجود ولا يلحقه اللاوجود بعد الوجود[١] لأن الوجود بعد اللاوجود هو بداية لأمر لم يكن موجودًا، هذه البداية محوطة بالزمان والله لا يقدر ولا يحدد بزمان.

واللاوجود بعد الوجود هو عدم ونهاية للوجود الذي كان، وهذه نهاية لشيء كان موجودًا والنهاية محددة ومقدرة بالزمان والله لا يحدد ولا يقدر بالزمان، كما يستحيل أن يكون في وجود الله تعاقب كقوة بعد ضعف أو صحة بعد مرض أو إدراك وتعقل بعد أن اللاإدراك ولا تعقل لأن كل هذه لا يمكن فهمها أو تعقلها أو معرفتها وإدراكها بمعزل عن الزمان "فإذا هو خلاء البداية والنهاية"[٢] أي هو سبحانه – خالٍ من البداية والنهاية وله وجوده كله معًا، وهذا إنما تقوم به حقيقة السرمدية"[٣] فالسرمدية تقتضي هذا كله وإلا لم يكن الله سرمديا –.

---

(١) مجموعة الردود، ص ٦٩.

(٢) السابق، ص ٦٩.

(٣) السابق، ص٦٩، ٧٠.

الدليل الثالث لإثبات أن الله سرمدي:

مما يوجب أن يكون "الله" سرمديا – أي أزلي ليس له بداية ولا نهاية – أنه لو لم يكن هكذا لكان غير موجود ثم أصبح موجودًا[1] ولو كان هكذا لاحتاج إلى موجدٍ ليخرجه من اللاوجود إلى الوجود، فمن يكون هذا الموجد ؟

لا يصح أن يقال إنه أوجد نفسه لأنه كان عدمًا والعدم لا يستطيع أن يفعل شيئًا، ولا يصح أن يُقال إنه أوجده غيره لأن هذا يعني أن غيره – أي غير الله – أقدم منه وقد سبق أن أثبت توما أن الله هو العلة الأولى ولأن الله هو العلة الأولى فليس هناك من هو أقدم من الله.

وهنا يمكن القول: **بإنه لو أوجده غيره لم يكن إلهًا لأنه حينئذ يكون محتاجًا في وجوده إلى هذا الغير ومن كان محتاجًا لا يصح أن يكون إلهًا، فضلاً عن هذا فإن القول بأنه أوجده غيره يوقعنا في القول بالتسلسل الذي ثبت بطلانه ولو أوجده غيره لكان هذا الغير أفضل منه وأعلى وأكمل منه والحق أنه ليس هناك من هو أقوى وأعلى وأكمل من الله.**

وبناء على هذه الحقيقة التي أثبتها توما **– وهي أن الله هو العلة الأولى – لم يكن وجود الله حادثًا مبتدأ ومن كان هكذا لم يكن منعدما ثم وجد، وإنما هو دائم الوجود بلا بداية وبلا نهاية، ومن كان دائم الوجود كانت له القدرة على أن يوجد دائمًا وهذا هو السرمدي، إذًا فالله سرمدي.**

وتوضيحًا لما ذكره الشارح[2] في هذا الصدد **وهو أن ديمونة الوجود قد تكون بالذات وقد تكون بالزمان أي دائم الوجود ذاتيًا أو دائم الوجود زمانيًا**

---

(١) مجموعة الردود، ص ٩١.

(٢) السابق، هامش ص ٦٩: ٧٤.

فآدم له وجود دائم زمانيًا وليس ذاتيًا إذ يمكن أن يلحقه العدم، أما الوجود الدائم ذاتيًا فهذا هو وجود الله لأن دوام وجوده - ﷻ - من ذاته وليس بسبب الغير، هذا الوجود الدائم ذاتيًا هو الذي له القدرة على أن يوجد دائمًا أما الوجود الدائم زمانيًا فهذا ليست له القدرة على أن يوجد دائمًا، وهذا هو ما عبر عنه علماء الكلام والفلاسفة الإسلاميين بالقدم الذاتي والقدم الزماني، أيضًا: القدم الذاتي له الديمومة أما القدم الزماني - كقدم العالم عند علماء الكلام الإسلاميين - فهذا ليست له الديمومة.

الدليل الرابع: لإثبات أن الله سرمدي[1]:

نحن نشاهد في الواقع أشياء موجودة ثم إذا بها تكون غير موجودة، وأشياء لم تكن موجودة ثم إذا بها تكون موجودة وهذه تسمى عند توما - وكذلك فلاسفة المسلمين - بأشياء ممكنة الوجود وتمثلها الكائنات والفاسدات أي الأشياء التي تتكون وتوجد بعد أن لم تكن مكونة ولا موجودة، والأشياء التي كانت كائنة وموجودة ثم فسدت وعدمت.

هذه الأشياء ممكنة الوجود لابد لها من علة تخرجها من حاله اللاوجود إلى حالة الوجود أو من حالة الوجود إلى حالة اللاوجود لأن الممكن نسبته إلى الوجود أو عدم الوجود متساوية لذلك فإنه يحتاج إلى مرجح[2] يرجح وجوده على عدمه أو عدمه على وجوده.

هذه العلة لا يجوز أن تتسلسل - أي لابد وأن تكون علة واجبة الوجود ليس لها موجد - لأنه قد سبق أن أثبتنا أن التسلسل ممتنع في العلل

---

(١) مجموعة الردود، ص ٧٤.

(٢) السابق، ص ٧٣، ٧٤.

الفاعلة[١] إذن "لابد من وضع شيء هو واجب الوجود[٢] فممكن الوجود يقابله واجب الوجود، والموجود الذي يحتاج إلى علة يقابله الموجود الذي لا يحتاج إلى علة وهي الله.

ويوضح توما هذا الاستدلال **بأن واجب الوجود هو ضروري الوجود- أي لابد منه - وضرورته هذه من ذاته وليست من غيره وإلا وقعنا في التسلسل الممتنع، وما كان وجوده ضروريًا وضرورته من ذاته وليست من غيره لزم وجوبًا "وضع ضروري أول يكون ضروريًا بذاته إذ أنه العلة الأولى كما سلف ..."[٣]، "فإذًا الله سرمدي لأن كل ما هو ضروري وواجب بذاته فهو سرمدي"[٤].**

الدليل الخامس لإثبات أن الله سرمدي[٥]:

وقد نسبه توما إلى أرسطو، ويقوم هذا الدليل على حقيقة يؤمن بها أرسطو وهي أن الزمان أزلي ولما كان الزمان عبارة عن عدد حركات الشيء المتحرك وهو - أي الزمان - عند أرسطو أزلي كانت الحركات أزلية هي الأخرى وبالتالي كان الجوهر الأول المحرك أزلي، وهذا الجوهر الأول المحرك الذي هو أزلي إنما هو الله.

فالله أزلي لأنه المحرك الأول، والحركات الصادرة عن هذا المحرك الأزلي

---

(١) ينظر: مجموعة الردود، ص ٦٣.
(٢) السابق، ص٧٥.
(٣) السابق، الفصل الثالث عشر، ص ٤٥.
(٤) السابق، ص ٧٥.
(٥) السابق، ص ٧٦.

أزلية لأنها صادرة عن محرك أزلي وبالتالي فالزمان أزلي لأنه ناتج عن حركات أزلية.

ولو أخذنا بالرأي الذي يرى أن الحركة غير أزلية وأن الزمان غير أزلي فدليل أزلية الجوهر الأول يبقى سليمًا وتبقى أزلية هذا الجوهر ثابتة لأن الحركة الحادثة – كما هو رأى النافين لأزليتها – لابد لها من محرك يحدثها، فإما أن يكون هذا المحرك أزليًا وهذا هو المطلوب إثباته وإما أن يكون حادثًا فيحتاج هذا إلى محرك آخر فيتسلسل الأمر وقد ثبت أن التسلسل ممتنع، إذن لابد من أن يكون المحرك الأول جوهرًا أزليًا ثابتًا غير متحرك وقد أكد توما هذه الحقيقة أن الله هو المحرك الأول ثابت لا يتحرك بنصوص من الكتاب المقدس حيث جاء في الزبور عد ١٠١ ف٥ – كما يقول توما – أن داود قال: "لأن الرب صالح إلى الأبد" وأيضًا جاء قوله عدد ٢٧ من المزمور ١٠٢ "وأنت هو وسنوك لن تنتهي" [(١)].

ولعدم أزلية الحركة يمكن القول:

بأن الحركة أنواع، وليس هناك نوع من هذه الأنواع ليست له بداية – أي بلا بداية – حتى يقال إن الحركة أزلية فضلاً عن هذا فإن الله عند توما محرك أول وعلى هذا فالحركات حين تصدر عنه تكون لها بداية وبذلك فلا تكون أزلية.

أما الزمان فإنه وإن كان أرسطو يراه أزليًا فالحقيقة هي أنه ليس بأزلي لأنه عبارة عن عدد حركات الشيء المتحرك والحركات ليست بأزلية للاعتبارات السابق ذكرها، إذن فالزمان ليس أزليًا، على أن تعريف الأزلي لا

---

(١) الكتاب المقدس، مزامير، عد ١٠١، ٢٥، ٢٨.

ينطبق على الحركة ولا على الزمان سواء كان المراد بالأزلي "ما لا يكون مسبوقًا" بالعدم[1] أو كان مرادًا به" الذي لم يكن ليس[2].

ثم إن المتحرك متغير "له أطوار في وجوده وأدوار في أفعاله من نقص وكمال وانتقال"[3] فإذا كان المتحرك متغير كانت الحركة تغيرًا وما كان متغيرًا لا يكون أزليًا.

هذه هي أدلة توما على أن الله سرمدي ويلاحظ على هذه الأدلة عدة ملاحظات:

الملاحظة الأولى: أنه استند إلى الأدلة العقلية في إثبات وجود الله ونوع هذا الوجود – سرمدي أي أزلي وأبدي – وهو بهذا يؤكد ما يعتقده من صحة الاستدلال بالأدلة العقلية على وجود الله – ﷻ –، في نفس الوقت يكون هذا رفضًا عمليًا لرأي القائلين بعدم جواز الاستدلال بالعقل على وجود الله – ﷻ –.

فضلاً عن هذا فإن استناد توما على البراهين العقلية – وهي منهج فلسفي – يدل على اعترافه بالفلسفة وصحتها وصحة الاستناد إليها في إثبات الحقائق الدينية الإيمانية.

الملاحظة الثانية: أن أكثر هذه البراهين العقلية مأخوذ من فلسفة أرسطو وهذا يعني أن توما من رجال الدين المؤمنين بفلسفة أرسطو والمعجبين به عكس ما يكون مشهورًا في هذه الفترة من عداء بعض رجال الدين لأرسطو

---

(١) التعريفات للجرجاني، ص١٧، باب الألف.
(٢) مجموعة الردود، ص ٦٩ هامش ٢ (٦٩، ٧٠).
(٣) السابق، هامش ١، ص ٧٧.

وفلسفته لدرجة تحريمها وتحريم الاشتغال بها.

الملاحظة الثالثة: **أن هذه الأدلة تبطل ما يؤمن به توما من أن الله ثلاثي وواحد؛ لأن مصطلح " الثلاثة" يعني العدد والحركة والتغير والزمان، والله منزه عن الحركة والعدد والتغير والزمان عند توما، فإذا كان توما مؤمنا بهذه الثلاثية وكان مؤمنا بهذه السرمدية فإنه يكون متناقضًا مع نفسه؛ لأن الثلاثية تناقض السرمدية.**

ومما يؤكد لنا تناقض توما الإكويني مع نفسه ما ذكره في الفصل الثاني والأربعون من كتابه "مجموعة الردود" محل البحث والذي جاء بعنوان (في أن الله واحد)، فقد ذكر في هذا الفصل ما يقرب من خمسة عشر دليلًا عقليًا على وحدانية الله – ﷻ – ثم دعم أدلته العقلية بأدلة من الكتاب المقدس، وعلى الرغم من هذا كله إلا أنه قد خالف ما ذكره ونقض نفسه بنفسه في ذات الفصل في آخره وصرح بما كان قد صرح به في الفصول السابقة على هذا الفصل وهو أن الله ثلاثي وواحد حيث جاء في نهاية الفصل ما نصه: (وممن قاوموا هذه الحقيقة أيضًا بأضاليلهم أصحاب آريوس الذين يقولون بأن الآب والابن ليسا إلها واحدًا بل إلهين مع أن شهادات الكتاب المقدس تضطرهم إلى الاعتقاد بأن الابن إله حقيقي)(١)، وهكذا نرى أن توما قد نقض نفسه بنفسه حين صرح بأن الابن إله حقيقي وقد ذكرت هذا التناقض هنا علمًا بأن بحثي هنا ينتهي بانتهاء الفصل الثالث عشرة فقد ذكرت هذا التناقض كي لا أكون متجنيًا على توما الإكويني أو أن أذكر كلامًا غير ما صرح به.

---

(١) مجموعة الردود، ص ٢٣٨.

الخاتمة

الحمد لله والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آليه وأصحابه ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين.

أما بعد: **فها نحن قد وصلنا خاتمة هذا البحث الذي قضيت معه وقتًا ليس بالقليل عرضت من خلاله الفلسفة الإلهية لتوما الإكويني من خلال كتابه: (مجموعة الردود على الخوارج فلاسفة المسلمين) محل البحث، وبعد البحث والدراسة أطلت علينا النتائج التالية:**

١- قسم توما الإكويني الحقائق الإيمانية الإلهية التي يجب على كل إنسان أن يؤمن بها إلى قسمين: قسم لا يدرك بالعقل، وقسم يدرك بالعقل الإنساني غير ا لطبيعي أي الخاصة من الناس وذلك لتفاوت العقول في مراتبها ودرجات ذكائها.

إذن التفاوت بين العقول يؤدي إلى إمكانية إدراك إنسان لبعض الحقائق الإلهية وعجز إنسان آخر عن إدراك هذه الحقائق.

٢- أثبت البحث أن ثقافة توما الإكويني كانت تجمع بين الاتجاه الديني والاتجاه الفلسفي حيث جعل توما العقل وسيلة من وسائل معرفة بعض الحقائق الإلهية كما أدخل توما ما أسماه بالإلهام الإلهي في معرفة الحقائق الإلهية وهذا منهج لاهوتي ديني تتبناه الكنيسة.

٣- دعوة توما إلى الاعتماد على العقل في أبحاث وموضوعات دينية يعتبر صورة من صور التوفيق بين الدين والفلسفة أو بين النقل والعقل.

٤- أثبت البحث أن توما يؤمن بوجوب عرض الحقائق الإلهية على الناس ليعتقدوها ويؤمنوا بها سواء أكانت هذه الحقائق مما يستطيع العقل إدراكها

ومعرفتها، أو كانت مما يعجز العقل عن إدراكها ومعرفتها؛ لأن مثل هذه الحقائق ضروي تلقينها بالوحي من قبيل الضرورة المطلوبة مطلقًا للغاية ومن قبيل الضرورة المطلوبة لحسن الوجود وهكذا يرمي توما من حديثه هذا إلى إسباغ القدسية الربانية على الحقائق الإيمانية الإلهية حتى لو كانت هذه الحقائق فوق مقدرة العقل واستحالة إدراك العقل بها أو استيعابها.

٥- أراد توما أن يثبت بأن إيمان الناس بالمسيحية وما فيها من حقائق إيمانية حتى ولو كانت فوق طاقة العقل ليس طيشًا وخفة وإنما هو حكمة وفطنة؛ لأن هذه الحقائق الإيمانية قد نزلت بها الحكمة الإلهية.

٦- لقد حاول توما الإكويني أن يبرهن على أن كل فاعل إنما يفعل شبيهًا له فيقول: إن المعلولات تحمل في نفسها بحسب حالتها شبه عللها لما أن الفاعل إنما يفعل شبيها له، وهذا أمر يؤدي لأن يكون لله شبيهًا في خلقه وهذا مخالف للنقل والعقل، أما بالنسبة للنقل يقول المولى - ﷻ -: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾[1].

٧- وأما عقلًا (فيجب أن يعلم أنه لا يجوز أن يكون مشبهًا - يعني الله - سبحانه وتعالى - للعالم المصنوع المحدث؛ لأنه لو جاز ذلك لم يخل إما أن يشبهه في الجنس أو في الصورة، ولا يجوز أن يكون مشبهًا له في الجنس؛ لأنه لو أشبهه في الجنس لجاز أن يكون محدثًا كالعالم المحدث، أو يكون العالم قديمًا كهو؛ لأن حقيقة المشتبهين المتجانسين ما سد أحدهما مسد الآخر وناب منابه وجاز عليه ما يجوز عليه)[2].

---

(١) سورة الشورى آية رقم ١١.

(٢) الإنصاف للباقلاني، ص ٣٢.

٨- لما كان توما من الذين يجوزون الاستدلال بالأدلة العقلية لإثبات وجود الله – ﷻ – فقد وضع جملة من الأدلة لإثبات هذه الحقيقة معترفًا بأن هذه الأدلة قد أخذها من فلسفة أرسطو وكذا الأئمة الكاثوليكيين حيث يقول (فلنتخطين الآن إلى ذكر الأدلة التي أتى بها الفلاسفة والأئمة الكاثوليكيين لإثبات وجود الله، وأول ما نتحرى إراده إنما هي البينات التي تطرق بها أرسطو إلى إثبات وجود الله) (١).

٩- سلك توما في طريقه إلى معرفة ما يتميز به الله – ﷻ – عن سائر الموجودات طريق السلب أو منهج السلب ويرى أنه هو الأفضل فيقول: (كلما تيسر لعقلنا الإكثار من السلوب عنه إزددنا تقربًا من معرفته ....، إذا كان لابد لنا في استخلاص ذلك التميز من الفصول السلبية) (٢).

---

(١) مجموعة الردود، ص ٤٥.

(٢) السابق، ص ٦٦ باختصار.

ثبت المصادر والمراجع

(١) القرآن الكريم (جل من أنزله)

(٢) أصول أهل السنة والجماعة، المسماة برسالة أهل الثغر للإمام أبي الحسن الأشعري، تحقيق: د/ محمد السيد الجليند، مطبعة التقدم، القاهرة ١٩٨٧م

(٣) الاقتصاد في الاعتقاد، تأليف: حجة الإسلام، محمد أبي حامد الغزالي الطوسي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط: الأخيرة، بدون.

(٤) الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به لإمام المتكلمين سيف الإسلامي القاضي أبي بكر بن الطيب الباقلاني، تحقيق وتعليق وتقديم: المحقق الحجة الإمام/ محمد زاهد بن الحسن الكوثري، مؤسسة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، ط: الثانية ١٣٨٢هـ ١٩٦٣م.

(٥) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للقاضي ناصر الدين أبي سعيد عبدالله ابن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، ط: الثانية ١٣٧٥هـ ١٩٥٥م.

(٦) تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط، يوسف كرم، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة ٢٠١٤م.

(٧) تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب، عبد الله الترجمان الأندلسي، تقديم: د/ محمود علي حماية، مكتبة النافذة.

(٨) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب للإمام فخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

(٩) تومس داكين، جوزيف رسام.

(١٠) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للإمام العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي، المكتبة التوفيقية، القاهرة ٢٠١٢م.

(١١) الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي تحقيق: أ/ عماد زكي البارومي، أ/ خيري سعيد، المكتبة التوفيقية سنة ٢٠٠٨م.

(١٢) الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي، د/ محمد البهي، دار غريب للطباعة، القاهرة، الناشر: مكتبة وهبة، القاهرة، ط: السادسة ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.

(١٣) حاشية الدسوقي على أم البراهين، محمد بن أحمد بن عرفة المالكي الدسوقي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: الأولى ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م.

(١٤) حضارة العرب، غستاف لوبون، ترجمة: عادل زعيتر، مطبعة الحلبي، مصر، بدون تاريخ.

(١٥) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، عباس محمود العقاد، ط: دار الهلال سنة ١٩٦٩م.

(١٦) دراسات في علم الكلام والعقيدة، د/ جميل محمد أبو العلا، مطبعة قاصد خير، ط: الأولى ١٩٨٤م.

(١٧) الدلائل والاعتبار للجاحظ، أبي عثمان عمور بن بحر، دار الندوة الإسلامية، بيروت، لبنان، سنة ١٩٨٨م.

(١٨) الرد على أصناف النصارى، على بن زين الطبري، تحقيق: خالد محمد عبده، مكتبة النافذة، ط: الأولى سنة ٢٠٠٥م

(١٩) رسالة التوحيد للإمام محمد عبده، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة ٢٠٠٥م.

(٢٠) الشامل في أصول الدين لإمام الحرمين الجويني، تحقيق: هلموت كلوبفر، دار العرب للبستاني، القاهرة.
(٢١) شرح العقائد النسفية للعلامة سعد الدين التفتازاني، تحقيق: د/ أحمد حجازي السقا، الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ط: الأولى ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.
(٢٢) شرح المواقف في علم الكلام، الموقف الخامس في الإلهيات للسيد/ الشريف علي بن محمد الجرجاني، تحقيق: د/ أحمد المهدي، الناشر: مكتبة الأزهر، القاهرة.
(٢٣) صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل عبدالله البخاري، ط: دار طوق النجاة، ط: الأولى سنة ١٤٢٢هـ.
(٢٤) صحيح مسلم للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
(٢٥) العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية، تأليف: الإمام الجليل إمام الحرمين أبي المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني، تحقيق: د/ أحمد حجازي السقا، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ط: الأولى ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م.
(٢٦) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، تأليف: محمد بن علي بن محمد الشوكاني، تحقيق: أ/ هاني الحاج المكتبة التوفيقية، القاهرة سنة ٢٠٠٩م.
(٢٧) الفرق بين الفرق وبيان الفرق الناجية منهم للإمام أبي منصور عبدالقاهر بن طاهر بن محمد بن عبدالله التميمي البغدادي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ط: الثالثة، بدون.

(٢٨) فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، تأليف: أبو الوليد بن رشد، دراسة وتحقيق: د/ محمد عمارة، دار المعارف، القاهرة، ط: الثانية ١٩٨٣م
(٢٩) الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم، الإمام أبو محمد علي ابن أحمد، مكتبة السلام العالمية.
(٣٠) فلسفة ابن رشد، فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة، تأليف: ابن رشد، مراجعة: مصطفى عبد الجواد عمران، المكتبة المحمودية التجارية – القاهرة، ط: الثالثة ١٣٨٨هـ ١٩٦٨م.
(٣١) فلسفة ابن طفيل ورسالة حي بن يقظان، تأليف وتحقيق: د/ عبدالحليم محمود، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ومكتبة المدرسة ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.
(٣٢) فيلسوف العرب والمعلم الثاني، الشيخ/ مصطفى عبد الرازق، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة ٢٠١٣م.
(٣٣) قاموس الكتاب المقدس، د/ بطرس عبد الملك، صدر عن مجمع الكنائس ١٩٧١م.
(٣٤) قصة الحضارة، ول ديورانت، ترجمة: محمد بدران، ط: الإدارة الثقافية سنة ١٩٧٣م.
(٣٥) قضية الألوهية في الفكر الإسلامي، د/ محمد العدل الباز.
(٣٦) كتاب أصول الدين للإمام أبي منصور عبد القاهر بن طاهر التميمي البغدادي، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ط: الأولى ١٩٨١م.

(٣٧) كتاب التعريفات، تأليف: الشريف علي بن محمد الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: الثالثة ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.
(٣٨) كتاب الخلاصة اللاهوتية للقديس توما الإكويني، ترجمه من اللاتينية إلى العربية: الخوري بولس عواد، المطبعة الأدبية، بيروت، لبنان ١٩٨١م.
(٣٩) كتاب اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع للإمام أبي الحسن الأشعري، تحقيق وتقويم: د/ حمودة غرابة، مطبعة مصر، شركة مساهمة مصرية سنة ١٩٥٥م.
(٤٠) الكتاب المقدس التوارة، الإنجيل – العهد القديم والجديد.
(٤١) كتاب شرح الأصول الخمس للقاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني، تعليق: أحمد بن الحسين بن هاشم، حققه وقدم له: د/ عبد الكريم عثمان، مكتبة وهبة بالقاهرة، ط: الأولى ١٣٨٤هـ ١٩٦٥م.
(٤٢) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تأليف: أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
(٤٣) الكندي فيلسوف العرب، د/ أحمد فؤاد الأهواني، المؤسسة المصرية العامة للتأليف: والترجمة والطباعة والنشر، بدون.
(٤٤) لسان العرب لابن منظور، تحقيق: عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، بدون.
(٤٥) لمع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة والجماعة للجويني، تقديم وتحقيق: د/ فوقية حسين محمود، مراجعة: د/ محمود الخضري، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والإنباء والنشر، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ط: الأولى ١٣٨٥هـ ١٩٦٥م.

(٤٦) الله واحد أم ثالوث، د/ محمد مجدي فرحان، ط: دار النهضة العربية.
(٤٧) لوامع اليقين في أصول الدين، د/ عبد الله يوسف الشاذلي، المكتبة الأزهرية للتراث ١٤٣٥هـ ٢٠١٤م.
(٤٨) مجموعة الردود على الخوارج فلاسفة المسلمين، المعلم الملائكي اللاهوتي القديس: توما الإكويني، ترجمه عن اللاتينية وعلق حواشيه: العلامة المطران/ نعمة الله أبي كرم، دار مكتبة بيبليون، لبنان سنة ٢٠٠٥م.
(٤٩) محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين للإمام فخر الدين محمد بن عمر الخطيب الرازي، مراجعة وتقديم: طه عبد الرؤوف سعد، الناشر: دار الكتاب العربي، ط: الأولى ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م.
(٥٠) مسند الإمام أحمد بن حنبل، الإمام أحمد بن حنبل، ط: مؤسسة الرسالة، ط: الأولى سنة ٢٠٠١م.
(٥١) معجم الفلاسفة، جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط: الأولى ١٩٨٧م.
(٥٢) معجم الفلاسفة المختصر، د/ خلف محمد الجراد، مجلة المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط: الأولى ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م.
(٥٣) المعجم الفلسفي، د/ عبد المنعم الحنفي، الدار الشرقية، ط: الأولى ١٩٩٠م.
(٥٤) المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية، المطبعة العامة لشئون المطابع الأميرية سنة ١٩٧٩م.

(٥٥) المعجم الفلسفي، مراد وهبة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة سنة ٢٠١٦م.
(٥٦) مقارنة الأديان "المسيحية"، د/ أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية ١٩٨٤م.
(٥٧) مقارنة الأديان بين اليهودية والإسلام، د/ عوض الله حجازي، ط: الثانية سنة ١٩٨١م.
(٥٨) مقارنة الأديان والديانات القديمة، الإمام محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي سنة ١٩٦٥م.
(٥٩) مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، الإمام أبي الحسن علي ابن إسماعيل الأشعري، طبعة خاصة بورثة المحقق.
(٦٠) نهاية الإقدام في علم الكلام، تأليف: أبي الفتح محمد بن عبد الكريم ابن أحمد الشهرستاني، حرره وصححه: الفرجيوم، بدون ذكر اسم طبعة، وبدون تاريخ
(٦١) الوجود والماهية في نظر القديس توما الإكويني والفارابي وابن سينا، وابن رشد، تأليف: الأب/ بولس مسعد، مطابع عدار الصياد، القاهرة ١٩٩٥م.
(٦٢) موقع ويكيبديا الموسوعة الحرة على شبكة الإنترنت

